الفلاحـــون - العنبر ٦

أنطون تشيخوف

- Author : Anton Techikhof
- Title: The Farmers
- Translated by: Moursi Sayied Moursi
- Afaq's First Edition: 2016
- Cover Design by: Amr El Kafrawy

◆ المؤلف: أنطون تشيخوف
◆ العنوان: الفلاحون - العنبر 6
◆ المترجم: مرسي سيد مرسي
◆ طبعة آفاق الأولى 2016
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

رقم الإيداع:
??????? / ٢٠١٦
الترقيم الدولي : ISBN
987 - 977-765-???-?

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No Part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system، or transmitted in any form، or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

أنطون تشيخوف

الفلاحـــون - العنبـــر رقم ٦

روايتان

ترجمهما عن الروسية

مرسي سيد مرسي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

تشيخوف، أنطون.

أنطون تشيخوف : الفلاحون والعنبر

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2016

192 ص، 20 سم.

رقم الإيداع ؟؟؟؟؟؟ / 2016

الترقيم الدولي ؟ – ؟؟؟ – 765 – 977 – 978

1 – الأدباء

2 – تشيخوف، أنطون

مقدمة

«إن لغة وأسلوب تشيخوف قمة من المستحيل الوصول إليها، وإذا تكلم المرء عن تاريخ اللغة الروسية لا بد له أن يقول إن فضل خلق هذه اللغة يرجع إلى بوشكين وتورجينيف وتشيخوف» هكذا كتب مكسيم جوركي.

ولد أنطون بافلوفتش تشيخوف في ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ في مدينة تاجانروج لأسرة فقيرة، إذ كان والده من أقنان الأرض وبعد تحرره فتح حانوت بقالة صغيرًا. وفي عام ١٨٦٨ التحق بمدرسة المدينة في سنة ١٨٧٣- وبخلاف دراسته في المدرسة- التحق بمدرسة الصنائع لتعلم أي حرفة ولكنه لم يواصل دراسته بها، وفي سنة ١٨٧٧ تركت أسرته المدينة وهاجرت إلى موسكو لمصاحبة أشقائه الكبار الذين بدأوا دراساتهم الجامعية، وبقي هو في المدينة لمواصلة دراسته الثانوية، وصار يعطي دروسًا خصوصية ليتعيش منها، كما كان يرسل بعض النقود إلى الأسرة في موسكو. وأثناء دراسته كان يكتب بمجلة المدرسة، كما كان

يكتب المسرحيات لفرقة المدرسة المسرحية.

وفي سنة ١٨٧٩ أنهى دراسته الثانوية وسافر إلى موسكو حيث التحق بكلية الطب في جامعة موسكو وتخرج فيها سنة ١٨٨٤، وبجوار عمله كطبيب أخذ يحضر رسالة للحصول على درجة الدكتوراه في موضوع «الطب في روسيا».

بدأ تشيخوف حياته الأدبية كصحفي وكاتب في المجلات الفكاهية الصغيرة حيث كان يكتب كل شيء: فكاهات ونكت وتعليقات على رسوم «الكاريكاتير» ومقالات في النقد الأدبي والفني، والقصص القصيرة... إلخ. وقد وصف تشيخوف هذه الفترة من حياته بقوله: «كنت أكتب القصص كما يكتب المحققون الصحفيون عن الحرائق. وكنت أحاول في كتاباتي ألا أستعمل تلك الشخصيات والموضوعات العزيزة عليّ والتي يعلم الله وحده لماذا كنت أحفظها وأخبئها»، ومع ذلك لم تكن قصصه هذه من النوع المألوف في ذلك الوقت، تلك القصص التي تتحدث عن جهل التجار وعن الزوجات الخائنات والأزواج المخدوعين والحموات الشرسات...إلخ، فلم يكن يحاول أن يجعل قصصه مضحكة فقط بل كان يحاول أن يضع فيها مضمونًا معينًا.

نشرت أول قصة له بعنوان «خطاب إلى جاري العالم» سنة ١٨٨٠ ثم توالت قصصه القصيرة الحجم العظيمة

المضمون، تلك القصص التي وضعته على عرش القصة القصيرة، ونذكر منها «السمين والرفيع»، «الحرباء»، «الصول برشبييف»، «فانكا»، و«أريد أن أنام».

ولم يترك تشيخوف كتابة المسرحيات وظهرت أولى مسرحياته الكبيرة «إيفانوف» سنة ١٨٨٩، ولقد اشترك تشيخوف مع ستانسلافسكي ونيميروفتش- داتشنكو المخرجين الشهيرين في خلق «مسرح موسكو الفني» الذي لعب دورًا مهمًا في تطوير المسرح الروسي بل والمسرح العالمي، ومن أشهر مسرحياته «النورس»، «الخال فانيا»، «الشقيقات الثلاث» و«بستان الكرز» التي أنهى بها حياته الفنية وحياته كلها.

لقد بدأ تشيخوف حياته الفنية في الثمانينيات من القرن الماضي حيث كانت الرجعية في أوج سطوتها في روسيا، وحيث كانت السلبية والتشاؤم والضياع تسيطر على فئات واسعة من المثقفين، ذلك بعد إفلاس فلسفات الشعبيين ولم تكن أي فلسفات جديدة قوية قد ظهرت بعد.

أخذ تشيخوف يهاجم في كتاباته الوضاعة والنذالة أينما وجدت، وصار يكشف الفساد المستشري في جميع نواحي وأركان المجتمع الروسي ويلقي الأضواء عليه، لم يكن تشيخوف يجيب في كتاباته عن السؤال «ما العمل؟» بل ولم يكن يشير ولا بالرموز على إجابة لهذا السؤال وكان يقول إنه

قبل أن نذكر ما الواجب وما المفروض أن يكون، يجب أن نعرف جيدًا ما الكائن والموجود فعلًا.

وكان تشيخوف في أول حياته الفنية متأثرًا بأفكار الأديب الفيلسوف الروسي ليف تولستوي، كان مؤمنًا بأن الإنسان يستطيع أن يحل كل مشاكله بحبه لأخيه الإنسان، وبالقناعة والرضا والتسامح، ولكنه تدريجيًا أصبح يرى أسباب الفساد في النظم القائمة وفي سيطرة المال ذلك خصوصًا بعد عودته من رحلته إلى جزيرة ساخالين- شرق سيبيريا- منفى روسيا القيصرية، تلك الرحلة التي قام بها سنة ١٨٩٠ ليتعرف جيدًا على كل نواحي الحياة في روسيا، وكان لها أسوأ تأثير على صحة الكاتب المريض بالسل. كذلك ساعدته على تحديد وتعميق مفاهيمه تلك الفترة من حياته التي قضاها وسط الفلاحين في أحد القرى القريبة من موسكو حيث ابتاع قطعة أرض شيد على جزء منها منزلًا صغيرًا واستقر به لعدة سنوات وأخذ يشترك في أعمال البر لمساعدة الفلاحين الفقراء وفي بناء المدارس، كما عمل في مكافحة وباء الكوليرا الذي انتشر عامي ١٨٩٢، ١٨٩٣ وهنا رأى الكاتب بنفسه عن كثب هول حياة الفلاح الروسي الذي كان يقاسي الفقر والجوع والجهل والمرض والفودكا. فصار تشيخوف في كتاباته يتنبأ بالمستقبل المشرق السعيد وينتقد سلبية وتهلهل ووصولية المثقفين بل ويدعو- على لسان بعض أبطاله-

إلى النضال في سبيل بلوغ هذا المستقبل. فمثلًا في قصته «قصة رجل مجهول» تقول بطلة القصة: «إن معنى ومضمون الحياة يتركز فقط في النضال، لا بدّ من سحق رأس الحية الوضيع! هذا هو معنى الحياة. هنا نجد المعنى أو لا معنى للحياة إطلاقًا» ولكن وكما قال جوركي كان هدف كتابات تشيخوف أساسًا هو توضيح الحقيقة التالية: من المستحيل أن يواصل المرء الحياة بالطريقة الحالية.

اشتد المرض على الكاتب فسافر إلى خارج روسيا للعلاج مرتين، ثم سافر إلى مدينة يالتا على البحر الأسود حيث شيد هناك «ڤيلا» واستقر فيها للاستجمام والعلاج.

وفي سنة ١٩٠٠ اختير تشيخوف عضوًا بالأكاديمية الروسية، وفي سنة ١٩٠٢ رفض هذه العضوية احتجاجًا على عدم موافقة القيصر نيكولاي الثاني على قرار علماء وأدباء روسيا باختيار جوركي عضوًا بالأكاديمية.

في سنة ١٩٠١ تزوج تشيخوف من إحدى ممثلات «مسرح موسكو الفني» وفي يونيو سنة ١٩٠٤ ساءت حالته الصحية فسافر مع زوجته إلى ألمانيا للعلاج حيث توفي هناك سريعًا، وأعيد جثمانه إلى روسيا ودفن في ٩ يوليو سنة ١٩٠٤.

لقد عمق تشيخوف الاتجاه الواقعي في الأدب الروسي وكان أبطاله من الناس البسطاء العاديين، بل لقد كان يرى

في كل إنسان موضوعًا كاملًا لقصصه. ولم تكن قصص ومسرحيات تشيخوف غنية بالحوادث بل كانت مليئة بالتحليل والتحليل النفسي وكان يرى المأساة من خلال الفكاهة والفكاهة من خلال المأساة.

وكان أسلوب تشيخوف يتميز بالبساطة المتناهية والدقة القاسية في اختيار الكلمات حتى لقد كان يتوقف أحيانًا لأسابيع أمام كلمة أو جملة معينة حتى يستقر اختياره على ما يرضيه.

ويعرف القارئ العربي أنطون تشيخوف من خلال قصصه القصيرة ومسرحياته، وهنا سيتعرف القارئ على قصتين طويلتين من أشهر ما كتب تشيخوف، دارت حولهما المناقشات وطاردتهما الرقابة.. الأولى «العنبر رقم ٦» التي نشرت سنة ١٨٩٢ في مجلة «الفكر الروسي» وفي سلسلة «للقراء المثقفين» والثانية «الفلاحون» التي نشرت في المجلة الأولى سنة ١٨٩٧.

ولعلها المرة الأولى التي تنقل فيها قصص لتشيخوف من الروسية إلى العربية مباشرة، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعلني أتمسك بالنص حتى أعطي للقارئ فكرة واضحة عن أسلوب الكاتب، وأرجو أن أكون قد وفقت إلى جانب ذلك في نقل روح العمل الأدبي لهذا الفنان العظيم.

الفلاحون

شخصيات الرواية

نيكولاي تشيكلدييف	Nikolai Tchikildeev
أولجا	Olga
كرياك	Kiriak
ماريا	Maria
فيكلا	Fekla
ساشا	Sasha
أوسيب	Ossip

- ١ -

مرض نيكولاي تشيكلدييف الخادم في فندق «سلفيانسكي بازار» في موسكو. أصبحت قدماه تنمّل وتغيرت مشيته، وذات مرة تعثر ووقع عندما كان يحمل صينية عليها طبق من اللحم بالبسلة، فاضطر لترك العمل. ونفدت كل النقود التي كانت لديه ولدى زوجه على العلاج وأصبح لا يملك ما يقتات به، ومل الحياة بلا عمل فقرر العودة إلى قريته، فالمعيشة بل والمرض نفسه أسهل عندما يكون الإنسان في موطنه، وصدق المثل الشعبي القائل: في بيتك حتى الجدران تساعدك!

وصل قريته- جوكوفو- مساء. كانت ذكريات الطفولة تصور له بيته مضيئًا مريحًا لطيفًا ولكنه عندما دخل المنزل بهت، لقد كان المكان ضيقًا مظلمًا قذرًا. وكانت زوجه أولجا وابنته ساشا قد حضرتا معه فأخذتا تنظران بتعجب وعدم فهم إلى الفرن الكبيرة التي تشغل نصف المنزل تقريبًا. لقد كانت تلك الفرن سوداء من السناج والذباب، يا لعدد الذباب المهول! كانت الفرن مائلة، مثلها كمثل القوائم الخشبية التي تقوم عليها الجدران مما يوحي بأن المنزل سينهار في الحال.

وعلى الفرن جلست طفلة في الثامنة، بيضاء الرأس، غير مغتسلة، غير مهتمة بشيء لدرجة إنها لم تلق نظرة على الداخلين، وكانت هناك قطة على الأرض تتمسح بركن الفرن، فنادت عليها ساشا: بس بس بس! فقالت الطفلة الجالسة على الفرن:

- إنها لا تسمع، لقد أصيبت بالصمم.

- لماذا؟

- هكذا. ضربوها.

ومن الوهلة الأولى أدرك نيكولاي وأولجا كيف تكون الحياة هنا، ولكنهما لم يتبادلا أي كلمة، وألقيا بمتاعهما وخرجا إلى الشارع صامتين. كان منزلهم الثالث من ناحية اليمين، يوحي منظره بأنه أفقر البيوت وأقدمها، ولم يكن البيت الثاني أحسن حالًا، أما المنزل الذي على الطرف فكان ذا سقف معدني ونوافذه ذات ستائر ولم يكن حوله سور، كان به حانة. وكانت المنازل مصفوفة بنظام والأشجار تطل من الأفنية المحيطة بالبيوت مما يعطي القرية منظرًا هادئًا شاعريًا وعمومًا كان منظر القرية لطيفًا.

وبعد بيوت الفلاحين يبدأ منحنى شديد الانحدار يوصل إلى النهر، تظهر فيه بعض الصخور العارية وفجوات من أثر حفر صناع الأواني الفخارية، كما نجد طريقًا ضيقًا متعرجًا، مليئًا بأكوام من بقايا الأواني الفخارية المهشمة. وعلى شاطئ النهر تنبسط مروج واسعة ذات لون أخضر زاهٍ قد جزت حشائشها وتتجول عليها قطعان ماشية الفلاحين. ويقع هذا النهر الكثير المنحنيات على بعد فرسخ واحد من القرية، وعلى الشاطئ المقابل أيضًا نجد المروج الواسعة عليها القطعان وطوابير الإوز الأبيض.

ثم يرتفع التل ارتفاعًا مفاجئًا، وعلى هذا التل تقع قرية أخرى، صغيرة، بها كنيسة ذات أبراج خمس، وعلى مسافة غير بعيدة يوجد منزل السادة.

رسمت أولجا علامة الصليب على صدرها ناظرة إلى الكنيسة وقالت:

- إن المنظر عندكم رائع. يا لاتساع دنيا الله!

وفي هذه اللحظة دقت أجراس الكنيسة داعية لصلاة العشية (كان اليوم سبتًا) والتفتت إلى الكنيسة طفلتان كانتا تحملان دلوًا مليئًا بالماء. وقال نيكولاي بصوت حالم:

- هذا هو وقت الغداء في «سلافيانسكي بازار»..

وجلس نيكولاي وأولجا على حافة المنحدر ليشاهدا الغروب، وليشاهدا السماء الذهبية الحمراء المنعكسة على صفحة النهر وعلى نوافذ الكنيسة بل وفي كل الهواء اللطيف، الهادئ، النظيف لدرجة غير معقولة، هذا الهواء الذي لا يوجد مثله في موسكو.

غربت الشمس، وعادت القطعان تخور، وعاد الإوز طائرًا من الشاطئ الآخر. هدأ كل شيء، وانطفأ الضوء الخافت العالق بالهواء، وزحفت ظلمة الليل سريعًا.

وفي هذه الأثناء عاد العجوزان، والد ووالدة نيكولاي النحيفان المحنيان الأهتمان بقامتيهما المتساويتين في الطول. كما عادت النسوة.. زوجتا الأخين، ماريا وفيكلا. كان الجميع يعملون عند السيد على الشاطئ الآخر. وكان لماريا زوج الأخ كرياك ستة أطفال ولفيكلا زوج الأخ دينيس- المجند حاليًا- طفلان. ولما دخل نيكولاي البيت ورأى العائلة مكتملة- كل هذه الأجساد الكبيرة والصغيرة التي تتحرك على الحصائر

وفي الأمهاد القذرة وفي كل الأركان، ورأى العجوز والنسوة يأكلن الخبز الأسود بعد غمسه في الماء أدرك أنه أخطأ في العودة إلى القرية مريضًا، دون نقود بل ومصطحبًا أسرته.

وبعد أن سلم على الجميع سأل:

- أين أخي كرياك؟

فقال الأب:

- إنه يعمل خفيرًا عند التاجر، في الغابة. كان من الممكن أن يصبح فلاحًا جيدًا ولكنه يشرب كثيرًا.

وقالت المرأة العجوز:

- عديم الفائدة! يا للمرارة. إن رجالنا لا يمدون البيت بالمال بل يأخذون منه. إن كرياك يشرب، وكذلك العجوز. تلك هي الحقيقة. إنهم يعرفون الطريق إلى الحانة جيدًا. لقد غضب علينا الرب.

وتحية للضيوف وضعوا السموار[1]. كانت رائحة السمك المملح تفوح من الشاي، والسكر رمادي اللون مقروض، وتتجول الصراصير على الخبز والأواني. فشربوا الشاي متقززين، وكان الحديث أيضًا مقززًا يدور كله حول الحاجة والفقر والمرض، وبعد أن شربوا الكوب الأول[2] سمعوا صرخة ممدودة ثملة: ماريا!

---

(١) السموار: جهاز لصنع الشاي، عبارة عن إناء معدني أسطواني كبير، ذو صنبور، بأسفله فرن صغير تعمل بالفحم فيغلي الماء بالإناء، ويحفظ الجهاز حرارة الماء لمدة طويلة- المترجم.

(٢) يشرب الروس عادة أكثر من كوب من الشاي، ويشربونه بالسكر أو المربى أو بالعسل.

فقال العجوز: لقد جاء كرياك. ما إن تذكره حتى يحضر.

هدأ الجميع وبعد لحظات تكررت نفس الصرخة، فظة، طويلة، ممدودة كما لو كانت آتية من تحت الأرض: ماريا!

فاصفر وجه ماريا والتصقت بالفرن، وكان من الغريب أن يرى على وجه هذه المرأة- القوية، عريضة الكتفين، القبيحة- تعبير الخوف، وبكت فجأة طفلتها الصغيرة- تلك التي كانت جالسة على الفرن وكان منظرها يدل على عدم الاهتمام، قوية عريضة المنكبين أيضًا- قائلة:

- ما الذي جرى لك أيتها الكوليرا؟ لا أظنه سيقتلها!

وعلم نيكولاي من العجوز أن ماريا تخاف أن تشارك كرياك الحياة في الغابة، وعندما يكون الأخير ثملًا يأتي ليأخذها، وعندئذ يرتفع صياحه عاليًا ويضربها بلا شفقة.

ولما جاءت الصرخة من وراء الباب تمامًا: ماريا! قالت ماريا متضرعة لاهثة الأنفاس- كمن وقع في ماء شديد البرودة-:

- احموني بحق المسيح! احموني يا أحبائي..

فبكى كل الأطفال وبكت ساشا لبكائهم، ثم سمع الجميع سعالًا ثملًا ودخل رجل طويل القامة، أسود اللحية، على رأسه طاقية شتوية. ولم يسمح ضوء المصباح الضعيف برؤية وجهه مما جعل منظره مخيفًا. هذا هو كرياك. اقترب من زوجته وضربها بقبضته على وجهها بكل قوة. لم تخرج من فمها أي صرخة بل بهتت من هول الضربة. وركعت على ركبتيها والدم يسيل من أنفها.

فقال العجوز صاعدًا على الفرن:

- يا للعار! أفي وجود الضيوف؟ حرام!

وجلست المرأة العجوز صامتة محنية الظهر تفكر في شيء ما، وأخذت فيكلا تهدهد أحد الصغار..

ويبدو أن كرياك كان راضيًا إذ يشعر بنفسه مخيفًا فأمسك بيد ماريا وجرجرها إلى الباب وزأر كالوحش حتى يبدو مخيفًا أكثر، وهنا رأى الضيوف فتوقف وقال تاركًا زوجه:

- آه. لقد جاءوا.. شقيقي وأسرته.

ورسم علامة الصليب أمام الأيقونة ووقف فاتحًا قدميه مهتزًا محملقًا بعينيه الثملتين الحمراوين وقال:

- لقد عاد شقيقي وأسرته إلى بيت العائلة... من موسكو إذن. أعظم مدينة، إذن، مدينة موسكو، أم المدن... أرجو المعذرة.

وارتمى على الأريكة بجوار السموار وأخذ يشرب الشاي. كان يرتشفه من طبق الفنجان بصوت مرتفع في ظل صمت الآخرين. وشرب حوالي عشرة فناجين ثم مال على الأريكة وشخّر.

استعد الجميع للنوم فوضعوا نيكولاي- بصفته مريضًا- على الفرن بجوار العجوز، ورقدت ساشا مع الأطفال على الأرض، أما أولجا فقد ذهبت مع النسوة إلى كوخ الحظير.

وعندما رقدت أولجا على التبن بجوار ماريا قالت:

- إيه يا عصفورتي لن تتحسن حالتك حتى لو احترقت بالدموع لا يوجد

إلا الصبر. ولقد جاء في الإنجيل: «إذا ضربك أحد على خدك الأيمن أدر له الأيسر». إيه يا عصفورتي! ثم أخذت تقص على النسوة بتنغيم وبصوت خفيض عن موسكو، وعن حياتها هناك، وعن عملها كخادم في الشقق المفروشة وأنهت حديثها قائلة:

- والكنائس في موسكو كثيرة جدًا، والبيوت كبيرة ومبنية بالحجارة، يسكن فيها سادة محترمون على جانب كبير من الجمال.

فقالت ماريا إنها لم تر موسكو أبدًا، ولا حتى مدينة المركز. لم تكن متعلمة، ولا تعرف الصلاة بل لا تحفظ حتى «أبانا الذي» ولقد كانت هي وفيكلا- التي جلست عن كثب تنصت للحديث- في منتهى الجهل، لا تفهمان شيئًا. وكانتا تكرهان زوجيهما، ماريا تخاف كرياك وترتجف رعبًا إذا صارت معه في خلوة، وتشعر بمنتهى الضيق من قربه إذ كانت رائحة الفودكا والطباق تفوح منه دائمًا. أما فيكلا فقد أجابت على السؤال عما إذا كانت تشعر بالحنين لزوجها البعيد قائلة:

- فليذهب إلى الشيطان.

تحدثن ثم سكن..

كان الجو باردًا نوعًا، وصراخ الديكة يمنع النوم. ولما بدأ ضوء الصباح الأزرق يتخلل الثقوب الموجودة في جدران الكوخ نهضت فيكلا بهدوء، وخرجت، وتردد وقع أقدامها الحافية وهي تجري إلى مكان غير معلوم.

- ٢ -

توجهت أولجا إلى الكنيسة وصحبت معها ماريا، انحدرتا على الطريق الضيق المتجه إلى المروج مرحتين: أولجا معجبة بالفضاء المتسع وماريا ترى في أولجا إنسانًا عزيزًا قريبًا إلى قلبها. كانت الشمس تشرق، وبالقرب من الأرض، على المرج يطير صقر لم يستيقظ تمامًا بعد، وبدا النهر غير واضح جيدًا للعيان لأن الضباب لا زال يتجول هنا وهناك، ولكن شريط الضوء كان يغطي التلال على الشاطئ المقابل، وتلمع أبراج الكنيسة تحت أشعة الشمس، والغربان تنعق بقوة في حديقة السادة.

وكانت ماريا تتحدث قائلة:

- العجوز غير سيئ. أما المرأة العجوز فقاسية، تتعارك معنا. ويكفينا قمحنا عادة حتى عيد وداع الشتاء[١] ثم نبدأ في شراء الدقيق من الحانوت، فتصرخ عندئذ العجوز قائلة إننا نأكل كثيرًا.

- إيه يا عصفورتي. الصبر ولا شيء غير الصبر. يقول الرب: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال».

وكانت أولجا تتكلم ببطء وتنغيم، وهي تمشي كالراهبات، بسرعة واتزان. وكانت تقرأ في الإنجيل كل يوم بصوت مرتفع وبطريقة القساوسة،

---

(١) عيد سلافياتي قديم يحتفل به في نهاية الشتاء، وتصنع فيه الفطائر.

ولم تكن تفهم الكثير مما تقرأه ولكن الكلمات المقدسة كانت تؤثر عليها تأثيرًا بالغًا حتى لتكاد الدموع تطفر من عينيها، وكانت تنطق بالكلمات السلافية القديمة- التي لا زالت تستعمل في الإنجيل- بقلب واجف مملوء بالرضا، وكانت تؤمن بالله و الأم المقدسة وبالقديسين، وتؤمن بأنه لا يجب إغضاب إنسان على وجه الأرض، سواء كان هذا الإنسان عاديًا، أو ألمانيًا، أو من الغجر، أو من اليهود. بل تؤمن بأن الله سيعذب حتى من لا يعطف على الحيوانات، وتؤمن بأن هذا كله مكتوب في الكتاب المقدس. لذا كان وجهها ينير وتعبر قسماته عن الرضا والسكينة ذلك عندما تنطق بأي كلمات من الإنجيل حتى لو كانت هذه الكلمات غير مفهومة لديها.

وسألتها ماريا:

- من أين أنت، أصلًا؟

- أنا من منطقة فلاديمرسك، أخذوني من قريتي منذ مدة طويلة، عندما كنت في الثامنة من عمري.

وعندما اقتربتا من النهر لمحتا امرأة تخلع ملابسها فعرفتها ماريا وقالت:

- هذه فيكلا. إنها تزور الخولي ورجاله. وهي لعوب سليطة اللسان لدرجة مذهلة!

أخذتا تنظران إلى جسدها الجميل الشاب القوي، وحواجبها السوداء الواضحة كالمرسومة وشعرها المسدل على أكتافها. ورمت فيكلا بنفسها في الماء وأخذت تضربه بأقدامها بقوة، فتناثر الرذاذ وتموج الماء من حولها. وكررت ماريا:

- يا لها من لعوب!

وعبر النهر كانت هناك قنطرة مبنية من قوائم الأخشاب المتعامدة، يرى من تحتها الماء الصافي الذي تظهر فيه قوافل السمك. وكان الندى يلمع على أوراق النباتات القريبة من الماء. وصار الجو دافئًا لطيفًا. يا له من صباح رائع! ويبدو أنه من الممكن أن تكون الحياة على هذه الأرض رائعة لولا الحاجة، الحاجة الفظيعة التي لا مخرج منها ولا مفر. وتكفي التفاتة واحدة إلى القرية لتذكر كل ما كان بالأمس- فضاع في الحال الشعور بالسعادة المتصورة.

ولما وصلتا إلى الكنيسة توقفت ماريا عند الباب ولم تجرؤ على التقدم. بل ولم تجرؤ على الجلوس أرضًا مع أن الأجراس لم تدق لبدء الصلاة إلا في التاسعة، وظلت واقفة طوال الوقت.

وعندما بدأت قراءة الإنجيل سرت همهمة وتحرك الناس فيفسحوا الطريق لعائلة السادة. دخلت فتاتان في قبعات كبيرة، معهما ولد سمين زهري الوجه مرتديًا لباسًا كلباس البحارة، ولقد تأثرت أولجا لرؤيتهم وقررت من النظرة الأولى أنهم أناس مهذبون محترمون مثقفون وعلى جانب كبير من الجمال. أما ماريا فقد رمتهم بنظرة كئيبة منقبضة غاضبة، نظرة من تحت الجفون. كما لو أن الداخلين ليسوا بآدميين بل غيلان ضارية تستطيع أن تطحنها بالأقدام إذا لم تفسح لها الطريق.

بدأ القس في القراءة وعندما كان صوته الأجش يرتفع كان يخيل إليها أنها تسمع صرخة «ماريا» فترتجف.

- ٣ -

علم أهل القرية بحضور الضيوف فامتلأ المنزل- بعد الصلاة- بالزوار، فحضر آل التشوف وآل ماتفيتش وآل ليونشوف ليسألوا عن أخبار ذويهم الموجودين في موسكو. لقد كان كل من يعرف القراءة من أهل جوكوفو يهاجر إلى موسكو للعمل فقط كخدم وسعاة في فنادقها ومقاهيها. (ومثلًا كان المهاجرون من القرية الواقعة على الشاطئ الآخر يهاجرون للعمل فقط كخبازين) وهكذا جرت العادة من قديم- من عهد القنانة[١]- عندما كان أحد المهاجرين الأوائل من قرية جوكوفو- لوكا إيفانوفتش- يعمل عامل بوفيه في أحد نوادي موسكو وكان يساعد مهاجري جوكوفو فقط في الالتحاق بالعمل، وهؤلاء الجدد يستدعون بدورهم أقاربهم ومعارفهم فقط ويساعدونهم في الالتحاق بالعمل في المطاعم والفنادق والمقاهي. ولقد هاجر نيكولاي من القرية عندما كان في الحادية عشرة، وألحقه بالعمل رجل يدعى إيفان مكارتش من آل ماتفيتش الذي كان يعمل ساقيًا في قهوة «أرميتاج». فتوجه نيكولاي بالحديث إلى آل ماتفيتش قائلًا:

---

(١) القنانة- كان الفلاحون في روسيا أقنانًا للأرض أي مثبتين إليها ويعتبرون من أملاك صاحب الأرض الذي يملك عملهم وحق بيعهم وشرائهم وحق عقابهم بالسجن أو الجلد أو النفي إلى سيبيريا وحق إرسالهم إلى الجيش كمجندين. ألغيت القنانة سنة ١٨٦١ في عهد القيصر ألكسندر الثاني- المترجم

- إن لإيفان مكارتش فضلًا كبيرًا عليّ وسأدعو له طول عمري لأنه هو الذي ساعدني في أن أصبح إنسانًا جيدًا.

فقالت أخت إيفان مكارتش- وهي امرأة عجوز- دامعة:

- قل لي يا بني ما أخبار حضرته؟

- في الشتاء الماضي كان يعمل في قهوة «آمون» وفي الموسم الحالي يعمل في أحد ملاهي الضواحي.. لقد كبر! في الماضي كان يحصل أحيانًا في اليوم الواحد على حوالي عشرة روبلات، أما الآن فقد أصبحت الحالة هادئة في كل مكان.. لقد تعب العجوز.

وكانت النسوة والعجائز تنظرن إلى حذاء نيكولاي البالي وإلى وجهه الشاحب المريض قائلًا:

- إنك عاجز عن الكسب يا نيكولاي أوسيبتش! لن تستطيع أن تتكسب! لن تستطيع!

وكان الجميع يدللون ساشا. كانت في العاشرة ولكنها كانت قصيرة ونحيفة بحيث تظهر كما لو أنها في السابعة لا أكثر. وكان منظرها غريبًا وسط الأطفال السمر البشرة ذوي الشعر الغير مقصوص والقمصان الطويلة، فلقد كانت بيضاء ذات عينين سوداوين واسعتين وشريط أحمر في شعرها. فبدت أشبه بالثعلب الصغير الذي اصطادوه في الحقل وأحضروه للمنزل للفرجة.

وقالت أولجا ناظرة بعطف وحب إلى ابنتها:

- إنها تستطيع القراءة.

وأخرجت من جيبها إنجيلًا ناولته لابنتها قائلة:

- اقرئي يا بنتي! اقرئي ليسمع المسيحيون الطيبون!

كان الإنجيل قديمًا، ثقيلًا، مجلدًا، أطرافه مقروضة، وتصاعدت منه رائحة جعلت الناس يتصورون أن إحدى الراهبات دخلت البيت. رفعت ساشا حاجبيها وبدأت القراءة بصوت مرتفع ونبرات منغمة:

- «فقال يوسف لإخوته تقدموا إليّ. فتقدموا. فقال أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر».

فكررت أولجا وراءها «.. الذي بعتموه إلى مصر» واحمر وجهها فرحًا. وواصلت الصغيرة:

- «والآن لا تتأسفوا أو لا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا. لأنه لاستبقاء حيوة أرسلني الله..»

وعندئذ لم تتحمل أولجا فبكت تأثرًا. ونظرت إليها ماريا وشهقت هي الأخرى. كما شهقت أخت إيفان مكارتش. وسعل العجوز جدها وأخذ يبحث عن شيء يعطيه لحفيدته مكافأة لها، ولكنه لم يجد شيئًا فأشار بيده فقط. ولما انتهت الطفلة من القراءة تفرق الجيران كل إلى منزله. وكان الجميع متأثرين وراضين عن أولجا وساشا.

بقي الجميع في المنزل للراحة فلقد كان اليوم أحد الأعياد الدينية، وبمحض إرادتها انهمكت العجوز- التي يناديها زوجها وزوجات أبنائها وأحفادها بالجدة- في القيام بالواجبات المنزلية وحدها، فهي التي حمت للفرن وللسموار بل وتوجهت للعمل نصف يوم. ثم أخذت تشكو وتقول إن الجميع قد أضنوها بالعمل. وقد كانت دائمًا تلاحظ بقلق حتى لا يأكل

أحد أكثر من نصيبه، وحتى لا يجلس العجوز أو زوجات ابنيها دون عمل، وكانت تتخيل أحيانًا أنها تسمع صياح إوز صاحب الحانة يتهجم على الزرع الموجود في حديقة الدار فتأخذ عصا طويلة وتقف بجوار الكرنب- النحيل الذابل مثلها تمامًا- وتأخذ في الصياح، وأحيانًا أخرى تتخيل أن الغراب يتهجم على الكتاكيت فتجري صارخة للدفاع عنها. وكانت دائمًا غاضبة تصيح من الصباح إلى المساء وتثير أحيانًا ضجيجًا صاخبًا لدرجة أن المارة في الشارع يتوقفون لاستطلاع الأمر.

وكانت طريقتها في الحديث مع زوجها غير لطيفة، وتبدأ الحديث معه دائمًا بإحدى كلمتي: الكسول أو الكوليرا. ولقد كان العجوز فلاحًا سيئًا لا رجاء منه لو لم تدفعه دائمًا للعمل لما عمل شيئًا ألبتة، بل لجلس على الفرن وأخذ يثرثر. لقد قص على نيكولاي كثيرًا عن أعداء ما وشكا له من أن جيرانه دائمًا يغضبوه، وكان حديثه دائمًا مملًا.

فكان - مثلًا - يمسك بجنبه ويقول:

- أجل.. أجل.. بعد الحصاد بأسبوع بعت التبن بسعر القنطار ثلاثين كوبيكا، بمحض إرادتي.. أجل.. حسنًا.. ولكن، إذن صباحًا وأنا أنقل التبن، بمحض إرادتي، في حالي إذا بالعمدة أنتيب سيديلنكوف خارجًا من الحانة، فقال لي: «إلى أين أيها الـــ..؟» وضربني على أذني.

وجلس كرياك في منتهى الخجل أمام أخيه من أفعاله بالأمس، وكان يعاني من صداع حاد من أثر الشرب وأخذ يهز رأسه قائلًا:

- يا للفودكا وما تفعله الفودكا يا إلهي! اعذرني يا أخي بحق المسيح! أنا نفسي غير راض عن أفعالي.

وبمناسبة العيد اشتروا من الحانوت سمكة مملحة وطبخوا على رأسها شوربة، وفي منتصف النهار جلس الجميع حول السموار لشرب الشاي، وشربوا كثيرًا حتى نضح العرق من أجسادهم بل حتى شعروا بالانتفاخ، وبعد الشاي جلسوا ليأكلوا الشوربة بالخبز من حلة واحدة. أما السمكة نفسها فقد أخفتها الجدة.

ومساء كان صانع الفخار يحرق الطمي عند شاطئ النهر، والبنات تغني في المروج، والشباب يعزف على الأوكورديون، وعلى الشاطئ الآخر كانت ترى فرن أخرى لصنع الفخار. والبنات أيضًا تغني. وبدأ الغناء جميلًا منتظمًا من بعد، وانبعثت ضوضاء الفلاحين من الحانة المجاورة، يغنون بصوت ثمل، كل يغني على حدة، وكان سبابهم بذيئًا لدرجة أن أولجا كانت ترتجف عند سماعه وتتمتم: «يا إلهي!» وكانت تتعجب من أن السباب لا ينقطع لحظة، ومن أن أكثر من يسبون وأعلاهم صوتًا هم هؤلاء العجائز الذين يقفون على حافة القبر. أما الأطفال فكانوا يستمعون إلى هذا السباب دون خجل وفي منتهى الهدوء ويبدو أنهم قد تعودوا عليه من المهد.

كان الوقت بعد منتصف الليل وانطفأت الفرن على هذا الجانب من النهر، كما انطفأت على الجانب الآخر، ولكن الناس لا يزالون يلهون على المروج وفي الحانة، تقدم العجوز وكرياك مخمورين إلى الكوخ حيث تنام ماريا وأولجا، أيديهما متشابكتين وأكتافهما تتصادم.

وأخذ العجوز يقنع ابنه قائلًا:

– اتركها.. لا داعي.. إنها امرأة طيبة.. هذا حرام..

ولكن كرياك صرخ:

- ماريا! ووقفا حوالي دقيقة أمام الكوخ ثم ذهبا.

وفجأة بدأ العجوز في الغناء بصوت عال رفيع:

- أنا أحب زهر الحقول.. أحب أن أجمعه في المروج!

ثم بصق وسب سبابًا بذيئًا ودخل البيت.

- ٤ -

أمرت الجدة ساشا بالوقوف بجوار الحديقة لحراستها من الإوز. وكان اليوم أحد أيام أغسطس الحارة. لم يحاول إوز صاحب الحانة دخول الحديقة؛ فلقد كان مشغولًا بالتقاط بعض الحبوب متحدثًا بسلام، إلا أحد الذكور الذي رفع رأسه كأنه يستطلع، هل تقف الجدة بعصاها الطويلة؟ أما بقية إوز القرية فكان يرعى هناك عند النهر في صف أبيض طويل. وقفت ساشا قليلًا ثم ملت، ولما رأت أن الإوز لا يقترب توجهت ناحية المنحدر.

ورأت هنا ابنة ماريا الكبرى- موتكا التي كانت واقفة على صخرة ضخمة تنظر إلى الكنيسة بلا حراك. لقد ولدت ماريا ثلاث عشرة مرة ولم يبق لها إلا ستة أطفال كلهم بنات، بلا ولد واحد، وكانت كبرى بناتها في الثامنة. كانت موتكا حافية القدمين مرتدية قميصًا طويلًا تقف في الحر تحت أشعة الشمس التي تكاد تحرقها، ولكنها لم تكن تلاحظ ذلك بل كانت كالتمثال. فوقفت ساشا إلى جانبها وقالت ناظرة إلى الكنيسة:

- إن الله يعيش في الكنيسة والناس يستعملون الشموع والمصابيح للإضاءة، أما الله فيستعمل القناديل الحمراء والخضراء والزرقاء التي تشبه العيون، وفي الليل يسير الله داخل الكنيسة ومعه الأم المقدسة والقديس نيكولاي. توب. توب. توب... فيدخل الرعب قلب حارس الكنيسة! وأضافت مقلدة أمها:

- إيه يا عصفورتي. عندما يأتي يوم القيامة ستطير كل الكنائس إلى السماء.

فسألت موتكا بصوت أجش ونبرات متقطعة:

- بأجراسها؟

- بأجراسها، وفي يوم القيامة سيذهب الخيرون إلى الجنة، وسيحترق الغاضبون في نار أبدية لا تنطفئ. هكذا يا عصفورتي. وسيقول الرب لأمي ولماريا «إنكما لم تغضبا أحدًا، لذا اذهبا إلى اليمين، إلى الجنة» وسيقول لكرياك وللجدة «أما أنتما فإلى اليسار، إلى النار!» كما سيذهب كل من يفطر في وقت الصيام إلى النار.

ونظرت إلى أعلى، إلى السماء محملقة وقالت:

- انظري إلى السماء دون أن يهتز لك جفن وسترين الملائكة.

أخذت موتكا تنظر إلى السماء، وانقضت دقيقة في صمت وسألتها ساشا:

- أترين؟

فأجابت موتكا بصوت أجش:

- لا أرى شيئًا.

- أما أنا فأراهم، يطيرون على صفحة السماء، أجنحتهم صغيرة، صغيرة كأجنحة البعوض.

فكرت موتكا ناظرة إلى الأرض ثم سألت:

- وهل ستحترق الجدة في النار؟

- ستحترق يا عصفورتي.

وكانت إحدى جوانب الصخرة تلتصق بمنحدر مغطى بحشائش خضراء تغري بلمسها باليد وبالرقاد عليها، فرقدت عليها ساشا وتدحرجت إلى أسفل فرقدت موتكا أيضًا- وعلى وجهها تعبير في منتهى الجدية- وتدحرجت فتمزق قميصها من على الكتف، وقالت ساشا بمرح:

- كم هذا مضحك!

وصعدتا إلى أعلى ليتدحرجا مرة أخرى، ولكن وصل إلى آذانهما صراخ حاد تعرفانه جيدًا. أوه. يا للفظاعة! كانت الجدة- الهتماء المعضمة المحنية الظهر التي يتطاير شعرها الأشيب مع الريح- ممسكة بعصا طويلة تطرد الإوز من الحديقة صارخة:

- أفسدتم كل الكرنب يا ملاعين، لتقصف رقابكم، لعنكم الرب ثلاثًا، يا مصائب، ألا تنفقون.

ولما رأت الصغار رمت بالعصا والتقطت فرع شجرة من على الأرض، وأمسكت بساشا من رقبتها بأصابعها الجافة الصلبة كالكماشة وأخذت تضربها، فأخذت ساشا تبكي من الألم والخوف. وفي هذه الأثناء اقترب ذكر إوز من العجوز وفح شيئًا ما، ولما عاد إلى بقية زملائه حيوه جميعًا مشجعين. كاك كاك كاك! ثم بدأت الجدة تضرب موتكا فتمزق قميصها مرة أخرى.

توجهت ساشا وهي تشعر بالتعاسة والشقاء باكية صارخة إلى البيت لتشكو، وسارت وراءها موتكا باكية أيضًا، بصوت أجش دون أن تمسح عيونها، وكان وجهها كله مبتلًا كما لو صب عليه ماء.

ولما رأتهما أولجا تعجبت وقالت:

- يا إلهي! يا أمنا التي في السموات!

وبدأت ساشا تقص، ودخلت الجدة صارخة تسب وتلعن، وغضبت فيكلا أيضًا فامتلأ المنزل بالضوضاء. وامتقع وجه أولجا من الحزن وقالت لساشا مهدئة:

- معلهش معلهش! إنها جدتك وسترتكبين ذنبًا كبيرًا إذا غضبت عليها. معلهش يا صغيرتي!

وكان نيكولاي يتعذب من الصراخ الدائم ومن الجوع والحر والروائح الكريهة، وكان يكره ويحتقر الفقر، ويشعر بالخجل من والديه أمام زوجته وابنته، فضاق الآن ذرعًا وقال لأمه بصوت باك:

- لا يحق لك ضربها! ليس لك أي حق مطلق في ضربها.

فصرخت فيكلا حانقة:

- تجلس على الفرن وتجلجل! ما الذي جاء بكم إلى هنا يا آكلي الروث؟!

وأسرعت ساشا وموتكا وكل البنات في الصعود على الفرن وتجمعن خلف ظهر نيكولاي، وصرن ينصتن إلى الحديث في صمت وخوف، ودقت قلوبهن الصغيرة بصوت مسموع. وعندما يكون أحد أفراد الأسرة مريضًا يقاسي من مرضه- الذي لا شفاء منه- من زمن بعيد، فإنه توجد أحيانًا فترات عصيبة يرغب فيها كل أقاربه في موته في خجل وفي السر، في أعماق أعماقهم. أما الأطفال فهم وحدهم الذين يخافون موته، وعندما

تلوح هذه الفكرة تمتلئ قلوبهم بالرعب. وفي هذه اللحظة نظرت البنات إلى نيكولاي حابسين أنفاسهن وعلى وجههن يظهر حزن عميق، وصرن يفكرن في أنه قريبًا سيموت وشعرن برغبة جامحة في البكاء، وفي أن يظهرن له بعض العطف والشفقة.

واقترب نيكولاي من أولجا كأنه يحتمي بها، وقال لها بصوت خفيض مرتجف:

– أولجا يا عزيزتي، لا أستطيع مواصلة هذه الحياة، لقد انهارت قواي، بحق الرب وبحق المسيح اكتبي لأختك كلافديا إبراموفنا أن تبيع أو ترهن أي شيء وترسل لنا نقودًا لنغادر هذا المكان. ثم أضاف مبتئسًا:

– أوه يا إلهي. ليتني ألقي ولو نظرة واحدة على موسكو ليتني أراها– أمنا– في المنام.

ولما خيم الظلام على البيت بعد هبوط المساء، كانت الصدور منقبضة لدرجة أنه من الصعب أن يتفوه أحد بكلمة. وأخذت الجدة الغاضبة تغمس قطعة من خبز الشوفان في فنجان ماء، وتمتصها، وظلت تمتصها لمدة ساعة كاملة. وأحضرت ماريا دلو اللبن بعد أن حلبت البقرة ووضعته على الأريكة فأخذت الجدة تملأ الطواجن الفخارية باللبن وتفعل ذلك ببطء مطمئنة أن أحدًا لن يشرب منه شيئًا لأن الوقت كان صيام العذراء وصبت مقدارًا صغيرًا جدًا في طبق فنجان لإطعام طفل فيكلا الرضيع. ولما خرجت مع ماريا لنقل الطواجن إلى الكوخ نهضت موتكا فجأة ونزلت من على الفرن بسرعة واقتربت من الأريكة حيث كان فنجان الجدة بخبزها ومائها وصبت فيه اللبن الموجود في طبق الفنجان.

وعادت الجدة وواصلت مص الخبز وأكله فأخذت ساشا وموتكا تنظران إليها من على الفرن في منتهى الرضا من أن صيام الجدة قد بطل ولا بد أنها ستذهب إلى جهنم. وهكذا هدأت نفساهما وخلدا إلى النوم. وصارت ساشا تتصور والنوم يداعب جفونها- يوم القيامة: تضطرم النار في فرن كبيرة مثل فرن صانع الفخار، ويأتي الشيطان الأسود الجسم ذو القرون الشبيهة بقرون البقرة ليسوق الجدة إلى النار بعصا طويلة كالتي كانت تطرد بها الإوز من الحديقة.

- ٥ -

في عيد العذراء- في الحادية عشرة مساء تصاعدت الصرخات من المروج حيث كان الشباب يلهو، وجرى الجميع متجهين إلى القرية. ولم يفهم أحد من الجالسين عند المنحدر ما سبب الضجيج، ثم سمع صراخ مبتئس من ناحية القرية: «حريق! حريق!».

التفت الجالسون أعلى المنحدر إلى القرية فظهرت أمام أعينهم صورة رهيبة غير عادية، رأوا على سطح منزل من الخوص عمودًا من نار طوله حوالي متران يدور بجنون قاذفًا بالحمم والشرر في جميع الاتجاهات مثل النافورة. وفي الحال شبت النار في كل السطح وتصاعدت ألسنتها اللامعة وسمع صوت النار تفح ملتهمة كل ما على السطح.

وبهت ضوء القمر وامتلأت كل القرية بالضوء الأحمر المرتعش المنبعث من النيران، وتتابعت الظلال السوداء على الأرض وعبق الجو برائحة الشياط، وكان الناس يهرولون ولا يستطيعون الكلام من الرعشة التي تملكتهم، ويتصادمون ويتعثرون، ويرون بصعوبة ولا يتعرفون على بعضهم البعض؛ لعدم تعودهم على الضوء الساطع. تملك الجميع الرعب، وأكثر ما كان يخيف الناس أن الحمام يطير فوق النيران في الدخان، ومن الغريب أن أصوات الغناء والموسيقى لا زالت تتصاعد من الحانة التي لم يعلم روادها بعد بخبر الحريق.

وصرخ أحدهم بصوت متحشرج عال:

- إن منزل العم سيمون يحترق!

وأخذت ماريا تسير بعصبية حول منزلها باكية خائفة تصطك أسنانها مع أن الحريق بعيد في الطرف الآخر من القرية، وخرج نيكولاي من البيت، وجرى الأطفال في قمصانهم.

وضرب أحدهم بمطرقة على لوح صاج بوم. بوم. بوم... فانقبضت قلوب الجميع من هذا الرنين الكريه، وخرجت النسوة العجائز بالأيقونات، وأخرج الفلاحون بهائمهم من الحظائر، كما أخرج الجميع صناديقهم وحاجياتهم من الدور. وانطلق فرس شرس مشهور بعض الخيل وجرى ذهابًا وإيابًا بطول القرية صاهلًا ضاربًا الأرض بأقدامه ثم توقف بجوار عربة وأخذ يرفسها بقدميه الخلفيتين.

ودقت أجراس الكنيسة على الشاطئ الآخر.

وبجوار البيت المحترق كانت الحرارة شديدة، والضوء ساطعًا لدرجة أن المرء يستطيع أن يميز بوضوح أصغر قطعة تبن على الأرض. وعلى أحد الصناديق التي استطاع الرجال إخراجها من البيت جلس سيمون. وهو فلاح أحمر الشعر كبير الأنف لابسًا طاقيته حتى أذنيه. وكانت زوجته راقدة على الأرض، دون وعي، وجهها إلى أسفل، تتأوه. كما كان هناك رجل عجوز، في حوالي الثمانين، عاري الرأس، قصير القامة ذو لحية كبيرة، يشبه الكهنة، لم يكن من أهل القرية، والظاهر أن له علاقة بالحريق. كان هذا العجوز يحوم حول المكان حاملًا صرة بيضاء تنعكس النيران على صلعته.

واقترب العمدة أنتيب سيديلنكوف- الأسمر الوجه والشعر- من المنزل المحترق، حاملًا فأسًا حطم بها النوافذ الواحدة بعد الأخرى لسبب غير مفهوم، ثم حطم مدخل المنزل وصرخ قائلًا:

- أيتها النسوة. أحضروا الماء! إليّ بماكينة الحريق! هيا بسرعة!

فحملها الرجال على أكتافهم. هؤلاء الرجال الذين كانوا يلهون في الحانة من دقائق قليلة، وكانوا جميعًا مخمورين، يتعثرون، على وجوههم تعبير العجزة، وأعينهم دامعة. وصرخ العمدة الذي كان مخمورًا مثلهم:

- إليّ بالماء يا بنات! هيا بسرعة!

فصارت البنات والنسوة تجري بسرعة لملء الدلاء من النهر ثم يفرغونها في ماكينة الحريق. وكذلك كانت أولجا وماريا وساشا وموتكا يحملن المياه. اشترك في ذلك كل النسوة والأولاد. وكان خرطوم المياه يفح والعمدة أنتيب ممسكًا به ضاغطًا على فوهته ليزيد من اندفاع الماء، يوجهه تارة إلى الباب وتارة إلى النوافذ، فقال البعض مشجعًا:

- حسنًا يا أنتيب! حسنًا!

وتقدم أنتيب من المدخل داخلًا في النار وصرخ قائلًا:

- ضخوا يا رجال! في هذا الوقت العصيب لا بد من العمل!

وكان معظم الرجال واقفين لا يفعلون شيئًا، لم يكن أحد منهم يعرف ما يجب عمله بل لم يكن أحد يستطيع شيئًا. ولقد كان هناك غير بعيد جرن قمح وتبن، وأكواخ مخازن، وحظائر، وأكواخ وقود. كما وقف كرياك وأبوه العجوز أوسيب ضمن الواقفين، وكأن العجوز يحاول مداراة وقوفه

دون عمل فتوجه للمرأة الراقدة على الأرض قائلًا:

- لا تحزني يا قريبتي! إن المنزل مؤمن عليه، فلم الحزن؟

وأخذ سيمون يحكي للرجال عن سبب الحريق، فقال:

- هذا العجوز الممسك بصرته- خادم الجنرال جوكوف... كان يعمل عند الجنرال جوكوف- أسكنه الله جناته- طاهيًا. جاء في المساء قائلًا: «اسمح لي أن أبيت عندك الليلة...» حسنًا، شرب كل منا كوبًا من الفودكا معلوم... وحمت المرأة السموار لتسقي العجوز الشاي. ليتها لم تفعل. وإذا بالنار تخرج من مدخنة السموار، إذن في السقف حالًا، في البوص، وطبعًا... وكدنا نحن أيضًا أن نحترق. بل لقد احترقت طاقية العجوز. يا للمصيبة!

استمر الدق على لوح الصاج كما كانت أجراس الكنيسة تدق أحيانًا، وتوقفت أولجا في النور تلهث وتنظر برعب إلى الخراف الحمراء بسبب ضوء النيران وإلى الحمام الوردي الذي يطير وسط الدخان، ومن بدء الحريق كانت تجري من النهر وإليه تشعر بأن رنين الطرقات على لوح الصاج يغوص في روحها كالسكاكين، وبأن هذا الحريق لن ينطفئ أبدًا، وبأن ساشا قد تاهت. ولما وقع سقف المنزل محترقًا سيطرت عليها فكرة بأن القرية كلها لا بد ستحترق فأحست بالضعف التام ولم تستطع مواصلة حمل الماء. فجلست بجوار المنحدر حيث جلس بعض النسوة يولولن.

ولكن ها هو الخولي وبعض العمال قد أتوا من الناحية الأخرى، من عزبة السادة، على عربتين وأحضروا معهم ماكينة حريق أخرى. كما جاء طالب من السادة ممتطيًا صهوة جواد مرتديًا جاكتة بيضاء مفتوحة، كان

شابًا صغير السن. وارتفعت الفؤوس، ووضعوا سلمًا على جدار المنزل المحترق صعد عليه خمسة رجال معًا وفي مقدمتهم الطالب، وبوجه محمر أخذ يصرخ بصوت مرتفع مبحوح وبلهجة واثقة كأن إطفاء الحرائق شيء عادي بالنسبة له. وأخذوا في فك القوائم الخشبية التي تقوم عليها الجدران كما فكوا خوص حظيرة الخنازير والجرن المجاورين فارتفعت أصوات حادة تقول:

- لا تسمحوا لهم بالتحطيم! لا تسمحوا.

فتقدم كرياك من العمال بثقة كما لو كان يرغب في منعهم من ذلك العمل، ولكن أحد العمال لوى ذراعه وأداره للخلف وصفعه على قفاه، فتصاعدت الضحكات، وضربه العامل مرة أخرى فوقع كرياك على الأرض وابتعد زاحفًا على أربع.

ومن بيت السادة قدمت أيضًا فتاتان- غالبًا شقيقتا الطالب، ووقفتا عن بعد لمشاهدة الحريق، وانطفأت القوائم الخشبية ولكن ما زال الدخان يتصاعد منها بكثافة. وكان الطالب ممسكًا بخرطوم المياه موجهًا تيار الماء إلى تلك القوائم تارة، وإلى جميع الفلاحين تارة، وإلى النسوة تارة أخرى، فتوجهت إليه الفتاتان بتحذير وقلق صارختين:

- «جورج! جورج!»[1].

انطفأ الحريق وعندما بدأ الناس يتفرقون لاحظوا أن الفجر قد بزغ، وأن الجميع شاحبون وسمر الوجوه قليلًا- هكذا يخيل للمرء في الصباح

(١) الاسم الصحيح بالروسية هو جيورجي ولكن بعض أبناء الطبقة الأرستقراطية يقولون: جورج للتدليل- المترجم.

الباكر عندما تنطفئ في السماء أواخر النجوم. وأخذ الفلاحون يضحكون ويتفكهون على طاهي الجنرال جوكوف، وعلى طاقيته التي احترقت. وكأنهم يريدون أن يلعبوا لعبة الحريق مرة أخرى، بل وكأنهم حزنوا قليلًا من أن الحريق انتهى بهذه السرعة.

وتوجهت أولجا إلى الطالب قائلة:

– لقد قمت يا سيدي بعمل طيب. لو كنت عندنا في موسكو لرأيت كل يوم حريقًا.

فسألتها إحدى البنتين:

– وهل أنت من موسكو؟

– أجل. أجل. كان زوجي يعمل في «سلافيانسكي بازار».

وأشارا إلى ساشا التي التصقت بها من البرد، وأضافت:

– هذه ابنتي. هي أيضًا من موسكو.

فقالت البنتان للطالب بضع كلمات بالفرنسية فأعطى الأخير عشرين كوبيكا للطفلة.

ولما رأى العجوز أوسيب ذلك، داعبه أمل فقال للطالب:

– يجب أن نشكر الرب يا سيدي المحترم أن الريح لم تكن شديدة، وإلا لاحترقت القرية كلها في ظرف ساعة.

وأضاف بخجل مخفضًا صوته:

– إن الجو بارد والإنسان في حاجة إلى الدفء... ألا تتكرم علي بثمن نصف زجاجة.

ولم يعطوه شيئًا فسعل وتوجه إلى داره. ووقفت أولجا طويلًا ناظرة إلى السادة، ورأت كيف عبرت عرباتهم النهر على المعدية، ثم كيف ساروا على المروج إلى أن وصلوا إلى عربة كبيرة كانت في انتظارهم هناك. ولما عادت إلى المنزل أخذت تقص على نيكولاي بانبهار:

- كم كان منظرهم جميلًا! كم هم طيبون! والبنتان كملائكة الخير!

فقالت فيكلا- التي كانت تغالب النعاس- بغضب:

- فليذهبوا إلى الجحيم!

- ٦ -

كانت ماريا تعتبر نفسها تعسة وكانت تتمنى الموت. ولكن هذه الحياة- بفقرها وقذارتها وسبابها البذيء- كانت تروق لفيكلا، فكانت تأكل كل ما يقدم لها، وتنام في أي مكان وعلى أي شيء، وكانت تدلق الماء القذر المليء بالنفايات أمام باب البيت رأسًا بل وتسير عليه بقدميها الحافيتين، وقد كرهت أولجا ونيكولاي من أول يوم؛ لأن هذه الحياة لم ترق لهما. وكانت تقول لهما بغيظ:

- سنرى ماذا ستأكلون هنا يا نبلاء موسكو! سنرى!

وفي أحد أيام سبتمبر، صباحًا، أحضرت فيكلا دلوين مليئين بالماء من النهر وكانت متوردة الخدين من البرد، وتظهر عليها آثار الصحة والجمال. ولما دخلت البيت رأت أولجا وماريا جالستين إلى المائدة تشربان الشاي، فقالت لهما بتهكم:

- شاي وسكر! يا للسيدات المحترمات! يا للنظام الجديد: يوميًا تشربان الشاي. احترسا وإلا أصبتما بانتفاخ من كثرة الشاي. وأضافت ناظرة بكره إلى أولجا:

- امتلأت أصداغك إثر حياتك في موسكو- يا غليظة!

ثم ضربت أولجا على كتفها بالعصا التي كانت تحمل عليها الدلوين، فأخذت المرأتان وصارتا ترددان:

- «يا إلهي! يا إلهي!».

ثم توجهت فيكلا إلى شاطئ النهر لغسل الثياب، وأخذت تسب طوال الطريق بصوت مرتفع مسموع في البيت.

غربت الشمس وبدأ ليل طويل من ليالي الخريف، وفي المنزل أخذ الجميع- ما عدا فيكلا التي توجهت إلى الشاطئ الآخر- يغزلون الحرير، الذي يأخذونه من المصنع المجاور للقرية، وكان ذلك يجلب لهم دخلًا أسبوعيًا حوالي عشرين كوبيكا.

وأخذ العجوز يتحدث أثناء العمل قائلًا:

- لقد كان الحال أفضل بكثير أيام القنانة، كان العمل والأكل والنوم بنظام، على الغذاء يعطونك الشوربة والأرز، وعلى العشاء أيضًا شوربة وأرزًا، أما الخيار والكرنب فدون حساب. على حريتك، تأكل منها كما تشتهي نفسك. وكان النظام أكثر جدية كل يعرف حدوده..

كان المصباح الوحيد يدخن ويضيء المكان إضاءة ضعيفة. وإذا حجب أحدهم ضوء المصباح بحيث يقع الظل على النافذة كان ضوء القمر يرى بوضوح، وكان العجوز أوسيب يحكي ببطء عن الحياة قبل إلغاء القنانة: كيف كان السادة يخرجون للصيد بخيلهم وكلابهم المدربة، ويملئون هذه الأماكن الفقيرة المملة بالمرح والحياة، فعند توقفهم للراحة في القرى يسقون الفلاحين الفودكا، وكيف كانت العربات المحملة بالصيد الوفير ترسل إلى موسكو للسادة الصغار، وكيف كان المذنب يعاقب بالجلد والنفي وكيف كان الطيب يكافأ.

كما قصت الجدة- التي تتمتع بذاكرة طيبة- بعض ذكرياتها، فحكت عن سيدتها الطيبة المتدينة وزوجها اللاهي السكير وبناتها اللاتي تزوجن زيجات سيئة: واحدة تزوجت بسكير والأخرى بفقير والثالثة هربت (ولقد ساعدتها الجدة- التي كانت شابة صغيرة عندئذ- في الهرب) ثم كيف قتلهن الحزن سريعًا مثلما قتل أمهن. وأبكتها هذه الذكريات.

وفجأة طرق الباب، فانتفض الجميع، وجاء صوت من خلف الباب:

- أيها العم أوسيب. اسمح لي بقضاء الليل عندك!

ودخل عجوز صغير أصلع، طاهي الجنرال جوكوف. نفس العجوز التي احترقت طاقيته. جلس وأخذ يسمع ثم بدأ هو الآخر يقص بعض ذكرياته. وكان نيكولاي جالسًا على الفرن يستمع ويلقي بأسئلته عن أصناف الطعام التي كانت تطهى للسادة، ودار الحديث عن أنواع اللحوم والمرق والصلصات، وأخذ الطاهي- الذي يتمتع كذلك بذاكرة طيبة- يذكر أسماء الأصناف التي لا تطهى حاليًا، مثل صنف كان يطبخ من أعين العجول ويسمى بـ :

«بعد أن تستيقظ. صباحًا»، وسأله نيكولاي:

- هل كنت تطهي الصنف المسمى بـ «كوفتة المارشال؟».

- لا.

فقال نيكولاي متهكمًا:

- إيه. يا للطهاة!

أما الصغيرات فقد كن على الفرن جالسات أو راقدات تنظرن إلى أسفل

دون أن يغمض لهن جفن. ويخيل إلى المرء أن عددهن كبير جدًا. وكانت القصص تروق لهن فكن يتنهدن ويرتجفن وتصفر وجوههن من الانبهار والخوف. وكن ينصتن إلى الجدة- التي تقص أشيق من الجميع- بأنفاس محبوسة خائفين أن يحدثن أي حركة.

ثم بدأ الجميع- في صمت- في الاستعداد للنوم. وأخذ العجائز الذين تأثروا بالقصص والذكريات تأثرًا بالغًا يفكرون بانبهار في أن الشباب جميل، ومهما كانت مشاكله فلا تتبقى منه إلا الذكريات المليئة بالحياة والمرح. وشعروا كأن يدًا باردة تعتصر قلوبهم عندما فكروا في الموت الذي أصبح غير بعيد.. من الأفضل ألا يفكر المرء فيه!

انطفأ المصباح، وصارت كل الأشياء- الظلام وضوء القمر في النوافذ والهدوء، وصرير المهد- تذكرهم بأن العمر على وشك الانتهاء وأن المرء لا يستطيع أن يرجعه أبدًا... وإذا داعب النوم جفونك ونسيت ما يحيط بك إذ بأحد النائمين إلى جوارك يلمس كتفك فجأة، أو تضرب أنفاسه في وجهك فيطير النوم من عينيك وتشعر بجسدك كله ينمل، وتتوارد على رأسك أفكار سوداء عن الموت، فإذا انقلبت على الجنب الآخر تنس الموت ولكن تمتلئ رأسك بالأفكار القديمة المملة المعتادة عن الحاجة والفقر وعن علف البهائم وعن ارتفاع سعر الدقيق، وبعد قليل تصل بأفكارك إلى أن حياتك قد انتهت ولن تستطيع أن تعيدها...

وتنهد الطاهي: «أوه. يا إلهي!».

سمعت طرقة خفيفة جدًا على النافذة، لا بد أنها فيكلا قد عادت، فقامت أولجا متثائبة، متمتمة بالصلاة، وفتحت الباب الداخلي، ثم رفعت

المزلاج عن الباب الخارجي وفتحته، ولكن لم يدخل أحد بل هبت ريح باردة وملأ ضوء القمر المدخل، ورأت أولجا الشارع الهادئ خاليًا من المارة كما رأت القمر سابحًا على صفحة السماء.

وقالت أولجا:

- من هنا؟

فجاء الرد:

- أنا. ها أنا!

وبجوار الباب وقفت فيكلا ملتصقة بالجدار عارية تمامًا، ترتجف وتصطك أسنانها من البرد فبدت تحت ضوء القمر اللامع بيضاء جميلة غريبة، وكانت الظلال ولمعان جسدها تحت ضوء القمر أول ما يسترعى الانتباه، كما ظهرت جيدًا حواجبها السوداء وصدرها النافر.

وقالت فيكلا:

- لقد نزع عني الشبان على الضفة الأخرى كل ثيابي وتركوني هكذا... وجئت إلى هنا بغير ملابس... كما ولدتني أمي. أحضري لي شيئًا ألبسه!

فقالت لها أولجا التي بدأت ترتجف هي الأخرى:

- فلتدخلي البيت!

- أخاف أن يراني العجوزان.

وفعلًا كانت الجدة قد قلقت وبدأت تتمتم كما سأل العجوز «من هناك؟» فأحضرت أولجا قميصها وجونلتها وألبست فيكلا، ثم دخلتا معًا بهدوء وأقفلتا الباب باحتراس حتى لا يسمع له صرير. وقالت الجدة

بغضب بعد أن تعرفت على فيكلا:

- أأنت يا جميلة؟ ألا تهمدين يا سيدة نصف الليل؟... ألا تأخذك مصيبة؟

فتمتمت أولجا وهي تغطي فيكلا:

- معلهش! معلهش يا عصفورتي.

ثم ساد الهدوء ثانية. ودائمًا كان نوم القوم قلقًا، فلكل من بالبيت شيء يضايقه ويمنع النوم عن عينيه: فالعجوز يقاسي من آلام في ظهره، والجدة مشغولة بمشاكل البيت، غاضبة دائمًا. والأطفال يشعرون بالجوع ولدغ الحشرات، وكذلك هم الآن. كان الجميع ينامون نومًا قلقًا يتقلبون ويهذون وينهضون لشرب الماء.

وفجأة انفجرت فيكلا باكية بصوت مرتفع غليظ، ولكنها سريعًا ما حبست صوتها، ولم يعد يسمع إلا شهيقها الذي أصبح مكتومًا وأكثر خفوتًا إلى أن هدأت تمامًا.

ومن وقت لآخر كانت دقات الساعة تأتي من الضفة الأخرى ولكنها كانت دقات غريبة، فبعد أن دقت الخامسة دقت الثالثة!

وتنهد الطاهي قائلًا: «أوه. يا إلهي!».

كان من الصعب أن تحكم بمجرد النظر إلى النافذة هل طلع الفجر أم أن القمر هو الذي يضيء؟ حين نهضت ماريا وخرجت لتحلب البقرة، كان صوتها وهي تصرخ في البقرة يصل إلى آذان الراقدين، كذلك خرجت الجدة، وكان الظلام لا يزال يخيم على البيت ومع ذلك بدأت معالم البيت تظهر.

ونزل نيكولاي- الذي لم يغمض له جفن طوال الليل- من على الفرن، وفتح صندوقه الأخضر وأخرج منه حلة الساقي وارتداها ثم اقترب من النافذة ونفض الغبار العالق بالكم وتحسس الياقة- وابتسم. ثم خلعها باحتراس وخبأها في الصندوق وصعد على الفرن ثانية.

عادت ماريا وأخذت تحمي الفرن، ويبدو أنها لم تستيقظ تمامًا بعد، ولكنها بدأت تستيقظ الآن وهي تعمل وغالبًا كانت تحلم بشيء ما أو تذكرت حديث الأمس إذ إنها تمطت بلذة أمام الفرن وقالت:

- لا. إن الحرية أفضل من عهد القنانة.

- ٧ -

جاء السيد. هكذا كان أهل القرية يسمون محضر المدينة. وكان أهل القرية يعرفون موعد وسبب حضوره قبل أن يحضر بأسبوع. ولم يكن في قرية جوكوفو إلا أربعون بيتًا فقط ولكن تراكمت عليها ضرائب وعجز في السداد للسادة أصحاب الأرض تربو قيمته على ألفي روبل.

توقف المحضر في الحانة حيث تناول «حضرته» كوبين من الشاء ثم توجه سائرًا إلى بيت العمدة حيث تجمع هناك كل المدينين. كان العمدة شابًا في حوالي الثلاثين إلا إنه كان صارمًا، يأخذ جانب الحكومة دائمًا بالرغم من أنه كان فقيرًا ومدينًا هو الآخر، ويبدو أنه كان معجبًا بعموديته، يروق له الشعور بالسلطان ولا يعرف طريقًا آخر لإظهاره إلا الصرامة. وكان الجميع ينصتون له إذا تكلم في الاجتماعات ويخافونه. وكثيرًا ما كان يهجم على أحد المخمورين بالقرب من الحانة ويوثق يديه ويعتقله لمدة يوم أو اثنين في غرفة المقبوض عليهم. ولقد تحفظ على الجدة ليلة كاملة ذلك عندما حضرت مرة اجتماعًا بدلًا من العجوز أوسيب أو أخذت تسب بعض الحاضرين.

لم يستوطن العمدة المدينة أبدًا، ولم يقرأ كتابًا، ومع ذلك تعلم بعض الكلمات والعبارات الذكية التي كان دائمًا يستعملها في حديثه ما جعل

الفلاحين يحترمونه بالرغم من أنهم كثيرًا ما كانوا لا يفهمونه.

دخل أوسيب- حاملًا دفتر حساباته- بيت العمدة حيث يجلس المحضر يقيد الحسابات في الدفتر العمومي. كان المحضر رجلًا كبير السن، نحيفًا، أبيض الشعر، مرتديًا معطفًا رمادي اللون. وكان المنزل نظيفًا والجدران مزينة بالصور المقصوصة من المجلات الملونة، وفي أهم ركن بجوار الأيقونة علقت صورة للأمير باتنبرج أحد أمراء بلغاريا السابقين، وبجوار المائدة وقف العمدة أنتيب سيديلنكوف عاقدًا يديه على صدره، وقال للمحضر عندما جاء دور أوسيب:

- إنه- يا سيدي المحترم- مدين بمائة وعشرين روبلًا. لقد دفع آخر مرة روبلًا وذلك قبيل عيد القيامة، ومن يومها لم يدفع كوبيكًا واحدًا.

فرفع المحضر عينيه إلى أوسيب وسأله:

- لماذا يا أخينا؟

فأجاب أوسيب متوترًا:

- أرجو من سيادتكم أن تنظر إليّ بعين الرحمة الإلهية. اسمح لي أن أشرح الأمر. في الصيف الماضي قال لي المالك صاحب الأرض: «بع يا أوسيب ما عندك من التبن.. بع» ولم لا؟ كان عندي حوالي مائة حمل للبيع كانت النسوة قد حصدتها، حسنًا. بدأت الفصال للبيع... ولكن كل شيء يسير على ما يرام، بمحض الإرادة...

وأخذ يشكو من العمدة متوجهًا إلى بقية الفلاحين كمن يطلب منهم أن يشهدوا على قوله، واحمر وجهه ونضح منه العرق وأصبحت عيناه حادتين غاضبتين.

فقاطعه المحضر قائلًا:

- أنا لا أفهم لم تتحدث عن هذا؟ أنا أسألك.. أنا أتوجه إليك بالسؤال لماذا لا تدفع ما عليك؟ أنتم لا تدفعون وأنا المسئول!

- لا أستطيع أن أدفع!

فقال العمدة:

- كل هذه الكلمات كما ترون سيادتكم دون نتيجة صحيح أن آل تشيكلدييف من الفئة التي لا تتمتع بالكفاية، ولكن اسمح لي أن أسأل الباقين عن السبب في عدم السداد، السبب كله- الفودكا وحب اللهو دون أي تقدير سليم.

كتب المحضر بضع كلمات في دفتره وقال لأوسيب بهدوء وبلهجة عادية كمن يطلب مثلًا كوبًا من الماء:

- اذهب إلى الشيطان!

وسريعًا ما غادر المحضر القرية. جلس في عربته وسعل وإذا نظرت حتى إلى ظهره الطويل النحيف لفهمت أنه لم يعد يذكر شيئًا عن أوسيب، أو عن العمدة، أو عن القرية كلها بل لا بد أنه يفكر في شيء خاص به.

وبعد قليل كان أنتيب سيديلنكوف يخرج من بيت آل تشيكلدييف حاملًا السموار وتجري الجدة وراءه صارخة بصوت حاد بأقصى ما تستطيع من قوة قائلة:

- لن أعطيه لك! لن أعطيه لك يا ملعون!

وكان العمدة يسير مسرعًا بخطوات واسعة والجدة تتبعه لاهثة، منحنية الظهر، تتعثر، في أقصى درجات الغضب، وقع منديلها على كتفيها، يتطاير شعرها الأشيب مع الريح، وفجأة توقفت وأخذت تدق على صدرها بثورة عارمة وتصرخ بأعلى صوت وبلهجة منغمة، مولولة:

- أيها المسيحيون. يا من تؤمنون بالمسيح! أغيثوني! أغيثوني أيها الطيبون! جاي.. جاي.. دافعوا عني يا أحبائي!

فقال لها العمدة بلهجة صارمة:

- أيتها الجدة، ثوبي إلى رشدك!

وأصبح الملل يسيطر تمامًا على بيت آل تشيكلدييف بعد فترة السموار. لقد كان في نزع السموار شيء محقر، كما لو أن المنزل قد فقد كرامته. كان من الأفضل لو أن العمدة أخذ المنضدة وكل الأرائك وكل الأواني فلم يكن ليبدو البيت خاليًا مثل ما يبدو الآن. أخذت الجدة تصرخ وماريا تبكي فبكت البنات لبكائها وداخل العجوز إحساس بالذنب فجلس صامتًا خافضًا رأسه، كما صمت نيكولاي الذي كانت الجدة تحبه وتعطف عليه، أما الآن فقد فقدت الشعور بالعطف وهجمت عليه تسبه وتعنفه ضاربة الهواء بقبضتها تحت أنفه تمامًا، وأخذت تصرح إنه هو المذنب والمسئول عن كل المصائب، وفعلًا لماذا كان يرسل أقل القليل من المال عندما كان يتفاخر بنفسه في خطاباته بأنه كان يحصل في «سلافيانسكي بازار» على خمسين روبلًا في الشهر؟ ولماذا أقدم إلى هنا بل بصحبة عائلته؟ وإذا مات فبأي نقود سيدفن؟.. حينئذ صار منظر نيكولاي وأولجا وساشا في منتهى البؤس.

فسعل العجوز وأخذ طاقيته وتوجه إلى العمدة. كان الظلام قد خيم، وجلس أنتيب سيديلنكوف بجوار الفرن مشغولًا بلحام بعض الأشياء المعدنية، نافخًا الهواء بفيه، وكان جو البيت حارًا خانقًا، وجلس أطفاله النحاف ذوو الوجوه القذرة- الذين لا يتميزون عن أطفال آل تشيكلدييف- يلعبون على الأرض، وكانت زوجته الحامل، الغير جميلة، التي يمتلئ وجهها بالنمش، تغزل الحرير.

وعلى الأريكة رصت خمس سموارات. رسم أوسيب علامة الصليب أمام صورة الأمير باتنبرج ثم قال:

- أنتيب. أظهر من عندك رحمة إلهية. اعطني السموار. بحق المسيح!

- إذا أحضرت ثلاثة روبلات أخذت السموار.

- لا أستطيع!

واصل أنتيب النفخ ففحت النيران وانعكس ضياؤها على أسطح السموارات، وأخذ العجوز يقلب طاقيته بين يديه وفكر قليلًا ثم قال:

- اعطنيه!

نظر إليه العمدة وكان وجهه مغطى بالسناج فانقلب سماره إلى سواد وأصبح منظره أشبه بالسحرة وقال بسرعة وصرامة:

- الأمر الآن يتعلق بمجلس المحافظة، وتستطيع أن تتوجه بشكواك إلى اللجنة الإدارية التي ستنعقد في السادس والعشرين من الشهر الحالي شفويًا أو كتابة.

ولم يفهم أوسيب شيئًا ولكنه اقتنع وعاد إلى البيت.

وبعد عشرة أيام حضر المحضر ثانية حيث قضى في القرية حوالي ساعة وذهب. وفي هذه الأيام كان الجو باردًا والريح تهب باستمرار، وتجمد النهر مع أن الثلج لم يبدأ في التساقط بعد، لذا كانت الطرق غير صالحة. وفي أحد الأعياد الدينية جاء بعض الجيران إلى أوسيب مساء للزيارة وتبادل الحديث، وكانوا يجلسون في الظلام لأن القيام بأي عمل في العيد حرام لذا لم يضيئوا المصباح، وتبادلوا بعض الأخبار المحزنة، مثل أن الحكومة استولت على الدواجن من بيتين أو ثلاثة تحصيلًا للديون، ونفقت الدواجن في الطريق إلى المدينة لأن أحدًا لم يطعمها. كما استولوا على بعض النعاج التي ماتت إحداها عندما كانوا ينقلونها من عربة لأخرى في إحدى القرى، وأخذ المجتمعون يناقشون مسألة: من المذنب؟ فقال أوسيب:

- المحافظة! من غيرها؟

- طبعًا المحافظة.

كانوا يدينون المحافظة في كل المصائب- في الديون وفي المشاكل وفي قلة المحصول، مع أن أحدًا منهم لا يفهم ماذا تعني كلمة محافظة.

وقد أخذ الفلاحون هذه العادة- عادة سب المحافظة- عن أغنياء الفلاحين وعن التجار وأصحاب الحوانيت والورش والحانات الذين زاروا مجالس المحافظة ولم يرق لهم ما وجدوه من معاملة فأخذوا يسبون المحافظة في حوانيتهم ومقاهيهم أمام الفلاحين.

كما دار الحديث عن أن الله لم يسمح بسقوط الثلج بعد وبذلك لا يستطيعون نقل الأخشاب على الزحافات. وقبلًا من حوالي خمسة عشر

أو عشرين عامًا كان حديث العجائز في جوكوفو شيقًا. فكان حديثهم عادة مسربلًا بالأسرار مليئًا بالإشارات المبهمة والتوقعات والتكهنات المختلفة، أما الآن فلم تكن هناك عند أحد منهم أي أسرار بل كانت حياة كل منهم مكشوفة كالكف المفتوح، والحديث يدور عن الحاجة وعن قلة علف البهائم وعن أن الثلج لم يتساقط بعد...

وخيم الصمت قليلًا ثم تذكروا الدواجن والنعاج وأخذوا يناقشون مسألة من المذنب؟ وقال أوسيب بملل ورتابة:

- المحافظة! من غيرها؟

- ٨ -

كانت هناك كنيسة كبيرة تقع على بعد ستة فراسخ من القرية، في كوسجروف. ولم يكن أهل القرية يزورونها إلا عند الحاجة: لتعميد الأطفال أو لعقد قران أو لصلاة أعياد الفطر، وكانوا عادة يصلون في الكنيسة الصغيرة التي تقع على الضفة الأخرى من النهر. وفي الأعياد إذا كان الجو معتدلًا ترى البنات بمناديلهن الزاهية الحمراء و الصفراء والخضراء تعبرن المروج في طريقهن إلى الكنيسة، ويلتزم الجميع منازلهم إذا كان الجو سيئًا. وفي نهاية الصوم كانوا يتناولون في الكنيسة. وفي عيد القيامة يمر القسيس على البيوت حاملًا الصليب ويحصل خمسة عشر كوبيكًا ممن لم يحضر للتناول في الكنيسة بعد الصيام الكبير.

كان العجوز لا يؤمن بالله لأنه لم يفكر في هذا الموضوع أبدًا. صحيح إنه يؤمن بوجود قوى خارقة ولكنه يعتقد أن ذلك الأمر يخص النسوة فقط، وإذا ما دار الحديث أمامه عن الدين أو عن المعجزات وتوجه إليه أحد بسؤال ما كان يجيب دون رغبة حاكًّا شعر رأسه:

- ومن أين لأحد أن يعرف؟

أما الجدة فكانت تؤمن إيمانًا ضعيفًا ولقد كان الأمر مختلطًا في رأسها، فإذا ما بدأت في التفكير في الذنوب والموت والعقاب استولت مشاكل الحاجة والفقر على تفكيرها لتنسيها في الحال ما كانت تفكر فيه. ولم تكن

تحفظ أي صلوات، وعادة مساء قبل النوم تقف أمام الأيقونة وتتمتم:

- سلام لعذراء كازانسك، وعذراء سمولنسك، وعذراء ترويرتشتس[1]..

وكانت ماريا وفيكلا ترسمان علامة الصليب وتصومان كل عام بلا أي فهم ولم يعلم أحد الأطفال الصلاة أو أي قواعد دينية ولم يكلمهم أحد عن الله، بل كانوا فقط يمنعونهم من أكل ما يفطر وقت الصيام. وهكذا كان الحال في بقية أسر الفلاحين: كان المؤمنون قلة والفاهمون أقل. وفي نفس الوقت كان الجميع يحبون الكتاب المقدس حبًّا جمًّا ولم يكن أحد يملك إنجيلًا، ولم يكن أحد يقرأ أو يوضح لهم الآيات لذا كان الجميع يحترمون أولجا لأنها تقرأ الكتاب المقدس ويتكلمون معها ومع ساشا بكل احترام.

وفي الأعياد الدينية كثيرًا ما كانت أولجا تزور كنائس القرى المجاورة وتزور أيضًا مدينة المركز حيث توجد سبع وعشرون كنيسة.. وكان تفكيرها عادة مشوشًا فعندما تكون في الكنيسة تصلي تنسى أن لها أسرة، وفي البيت عندما تعود تكتشف بفرح أن لها زوجًا وطفلة فتقول والسعادة تضيء وجهها:

- لقد أعطاني الرب ما يسعدني!

وكانت تشعر بالقرف والعذاب مما يجري في القرية كان الفلاحون يشربون في يوم عيد النبي إلياس وفي عيد العذراء وفي عيد رفع الصليب.. وبمناسبة عيد مولد قديس الكنيسة المحلية شرب الفلاحون ثلاثة أيام متوالية سويًا فصرفوا على ذلك خمسين روبلًا من صندوق القرية ثم أخذوا

(١) أسماء ثلاث كاتدرائيات مشهورة في مدن روسيا الكبرى.

يجمعون نقودًا أخرى من كل البيوت لمواصلة شرب الفودكا. وذبح آل تشيكلدييف خروفًا في أول أيام العيد وصاروا يأكلون من لحمه صباحًا وفي الغداء وفي العشاء، بل صار الأطفال يستيقظون ليلًا ليأكلوا، وطوال أيام العيد الثلاثة كان كرياك مخمورًا لدرجة رهيبة، وباع كل ما يملك ليشرب به فودكا، حتى لقد باع طاقيته وحذاءه، وكان يضرب ماريا لدرجة أنهم كانوا يصبون عليها الماء لتفيق. وبعد العيد كان الجميع يشعرون بالخجل والغثيان.

وبالمناسبة، في هذا العام عاشت القرية مرة عيدًا دينيًا حقيقيًا، كان ذلك في أغسطس عندما كان رجال الدين يمرون على القرى حاملين إحدى الأيقونات الشهيرة، ويوم انتظرت القرية زيارة الأيقونة كان الجو هادئًا والسحب تغطي السماء، ومن الصباح الباكر توجهت الفتيات بمناديلهن ذات الألوان الزاهية لمقابلة الأيقونة حيث وصلت مساء وحولها مسيرة صليبية تردد التراتيل الدينية، وفي نفس الوقت دقت أجراس الكنيسة- التي وراء النهر- ثلاثًا وسد جمع من فلاحي القرية والقرى المجاورة الشارع، وتصاعد الضجيج وثارت الأتربة وازداد الزحام..

وخرج العجوز والجدة وكرياك وأيديهم ممدودة تجاه الأيقونة، ونظروا إليها بنهم وأخذوا يكررون باكين:

- أيتها العذراء الرحيمة! أمنا الرحيمة!

وكما لو أدرك الجميع فجأة أنه لا فراغ بين الأرض والسماء، وأن الأغنياء والأقوياء لم يستولوا بعد على كل شيء، وأن هناك حماية من المصائب وحياة العبودية ومن الحاجة والفقر المدقع الغير محتمل ومن

الفودكا الرهيبة.

وكانت ماريا تصرخ باكية:

- يا أمنا الرحيمة! يا أمنا!

ولكن بعد أن انتهت الصلاة وذهبوا بالأيقونة عاد كل شيء لحالته القديمة، وها هي الأصوات المخمورة الفظة تتصاعد ثانية من الحانة...

لم يكن يخاف الموت إلا أغنياء الفلاحين الذين كلما ازدادت أموالهم قل إيمانهم بالله وبخلاص الروح، ولكن لخوفهم من الفناء، وعلى أي حال- كانوا يزورون الكنيسة للصلاة ووضع الشموع.

أما الفلاحون الفقراء فلا يخافون الموت، ولم يكن العجوز أو الجدة يغضبان إذا قال لهما أحد إنهما قد كبرا وحان أجلهما، ولم يكن أحد يشعر بالخجل من أن يقول لفيكلا أمام نيكولاي إنه عندما سيموت الأخير سيعافى زوجها دينيس من الجندية وسيعود إلى بيته. أما ماريا فلم تكن فقط لا تخاف الموت بل كانت تحزن من أن الموت يتأخر هكذا، وعادة تفرح جدًّا عندما يموت أحد أطفالها.

ومع أنهم لا يخافون الموت إلا أنهم ينظرون للمرض برعب حقيقي، فإذا شعرت الجدة بأقل توعك- عسر هضم أو رعشة خفيفة مثلًا ترقد على الفرن في الحال ثم تأخذ في التأوه المستمر بصوت عالٍ.. آه. إني أموت! فيسرع العجوز بإحضار القسيس.

وكثيرًا ما يدور الحديث عن نزلات البرد، وعن ديدان البطن، وعن الثعابين التي تتجول في الأمعاء وتصعد إلى القلب فتخنقه، ولكن نزلات البرد كانت أكثر ما يخيفهم، لذا فإنهم يرتدون ثيابًا ثقيلة ويتدفئون حوم

الفرن حتى في الصيف، وكانت الجدة تحب العلاج وكثيرًا ما كانت تذهب إلى المستشفى حيث تذكر أن عمرها ثمانية وخمسون عامًا، لا سبعون، لأنها تخاف من أن الطبيب إذا علم عمرها الحقيقي لن يعالجها بل سيقول لها إن من الواجب عليها أن تموت لا أن تعالج، وكانت عادة تغادر القرية إلى المستشفى في الصباح الباكر مصطحبة معها طفلتين أو ثلاثًا، وتعود في المساء جوعانة غاضبة ومعها بعض النقط لنفسها وبعض المراهم للأطفال. وصحبت معها مرة نيكولاي الذي صار يتناول لمدة أسبوعين نقطًا ما ويقول إنه يشعر بتحسن.

كانت الجدة تعرف كل الأطباء والتمورجيين في القرى والمدن الواقعة حول جوكوفو في حدود مسافة ثلاثين فرسخًا ولم يرق لها أحد منهم. وعندما مرت الأيقونة الشهيرة على القرية في أغسطس الماضي أخبرها أحد القساوسة عن تمورجي جديد، كان يعمل قبلًا في الجيش، ونصحها بزيارته؛ فأطاعت الجدة النصيحة وعندما تساقط أول ثلج توجهت إلى المدينة وأحضرته، وكان عجوزًا ملتحيًا، وجهه مغطى بالعروق الزرقاء. في هذا الوقت كان بالمنزل ترزي عجوز ذو نظارات مخيفة يقص صديريًا من بقايا قماش قديم، ومعه صبيان يصنعان من بقايا الصوف أخفافًا شتوية، كما جلس كرياك- الذي طرد من عمله لسكره الدائم- يصلح سلسلة حديدية، لذا كان البيت مزدحمًا والجو خانقًا عطنًا، وبعد أن فحص التمورجي نيكولاي قال إنه لا بد من وضع كاسات هواء.

وأثناء وضع كاسات الهواء وقف الترزي العجوز وكرياك والبنات ينظرون، وخيل لهم إنهم يرون كيف يخرج المرض من جسم نيكولاي،

ورأى نيكولاي أيضًا كيف تلتصق الكاسات بصدره، وكيف تمتلئ ببطء بدم قاتم اللون، وشعر فعلًا بأن شيئًا ما يخرج منه فصار يبتسم فرحًا راضيًا. وقال الترزي:

- هذا حسن، جعل الله في هذا الشفاء.

وضع التمورجي اثنتي عشرة كأسًا ثم اثنتي عشرة أخرى ثم ارتوى بالشاي وذهب. وأخذ نيكولاي يرتجف، وصار لون وجهه رماديًّا- وكما قالت النسوة- انكمش وجهه وأصبح كقبضة اليد، وازرقت أصابعه. تغطى ببطانية ومعطف ولكن شعوره بالبرودة أخذ في الازدياد. وفي المساء داخله شعور بالقلق والضيق، وطلب أن ينزلوه من على الفرن ثم طلب من الترزي أن يكف عن التدخين، وأخيرًا هدأ تحت البطانية، وقبيل الفجر مات.

- ٩ -

أوه.. يا له من شتاء قاس طويل!

لقد فرغ القمح من البيت قبل عيد الميلاد وبدأوا في شراء الدقيق، وكان كرياك- الذي أصبح يعيش الآن في المنزل- يثور كل مساء ويملأ قلوب الجميع بالرعب، ثم يتعذب في الصباح من الصداع والخجل لدرجة تثير الشفقة. وكانت البقرة في الحظيرة تخور صباحًا ومساء من الجوع مما يقطع قلب الجدة وماريا. كان الشتاء قارس البرد، والثلج يتساقط بكثرة واستمرار. وامتد الشتاء، ففي عيد البشارة هب إعصار شتوي حقيقي وفي عيد القيامة تساقط الثلج. ولكن ها هو الشتاء ينتهي ففي أوائل أبريل كان النهار دافئًا والليل باردًا. الشتاء يتراجع. ولكن ها قد انتصر نهار دافئ وأخيرًا ذاب الجليد وزقزقت العصافير، وغطت المياه المروج، وأصبح الفراغ الواقع بين جوكوفو وبين القرية التي على الجانب الآخر من النهر كخليج ضخم، يطير البط البري على صفحته، وكان الغروب الملتهب، ذو السحب المنتفخة يعطي كل مساء شيئًا غير عادي، جديدًا، غير معقول. يعطي هذا المنظر الذي لا تصدقه عندما ترى نفس السحب ونفس الألوان مرسومة على لوحة.

وكانت اللقالق تطير بسرعة كبيرة وتصرخ كالحزينة كما لو أنها تدعوك أن تصاحبها، وكانت أولجا تقف طويلًا على الشاطئ تنظر إلى المياه، وإلى الشمس، وإلى الكنيسة التي كما لو أنها استعادت شبابها، وتنهمر الدموع من عينيها، وتنحبس أنفاسها، وتشعر برغبة عارمة في أن تذهب إلى بعيد حتى إلى آخر العالم، وكانت قد قررت أن تعود إلى موسكو لتعمل كخادمة وأن تصحب معها كرياك ليعمل كبواب أو في أي عمل آخر. آه لا بد من الإسراع في الذهاب.

فلما جفت الطرق وأصبح الجو دافئًا استعدت للرحيل. خرجت أولجا وساشا في الفجر وعلى ظهر كل منهما صرة. وخرجت ماريا لتوصلهما، وكان كرياك مريضًا فقرر البقاء أسبوعًا آخر. رسمت أولجا علامة الصليب ناظرة للمرة الأخيرة إلى الكنيسة، وتذكرت زوجها فلم تبك بل تغضن وجهها وصار غير جميل مثل وجه العجائز، لقد تغيرت كثيرًا عما كانت قبل الشتاء. نحف جسدها وساء منظرها وابيض شعرها قليلًا، وبدلًا من الابتسامة اللطيفة التي كانت تضيء وجهها، صار على وجهها تعبير خنوع وحزن وظهر في نظرتها شيء من الغباء والسكون كما لو أنها أصبحت صماء. وكانت تشعر بالحزن لمغادرة القرية والفلاحين، وتذكرت كيف حملوا نيكولاي ميتًا، يتوقفون عند كل منزل للوداع، وكيف كان الجميع يبكون يشاركونها الحزن. وخلال الصيف والشتاء التي قضتها في القرية كثيرًا ما كانت تفكر أن هؤلاء الناس يعيشون أسوأ من البهائم وكانت الحياة بينهم مخيفة: فهم أفظاظ، غير شرفاء، أقذار، مخمورون، يعيشون بلا وفاق، دائمو العراك، لذا فإن كلا منهم لا يحترم الآخر ويخاف منه ويشك

فيه. من الذي يفتح الحانة ويسكر الفلاحين؟ فلاح. من الذي يصرف النقود العامة والمدرسية والكنائسية ويبعثرها على الخمر؟ الفلاح. من الذي يسرق جاره ويحرق محصوله ويشهد ضده شهادة زور من أجل زجاجة من الفودكا؟ من أول من يتكلم في الاجتماعات ضد الفلاح؟ الفلاح. فعلًا إن الحياة بينهم مخيفة ولكنهم آدميون يتعذبون ويبكون كبقية الآدميين، ولا يوجد شيء سيئ في حياتهم إلا وله مسببات، العمل المضني الذي يملأ كل الجسد بالآلام ليلًا، الشتاء القاسي، المحصول القليل، الزحام في البيوت. ولا خلاص من ذلك ولا مساعدة، ولا يوجد من ينتظر منه الخلاص والمساعدة. الفلاح الأغنى والأقوى لا يساعدهم لأنه هو أيضًا فظ، غير شريف، مخمور، ويسب بنفس البذاءة. إن أصغر موظف أو أي خولي يعامل الفلاح معاملته للشحاذ ويكلم عجائزهم وكبارهم بلا أدنى احترام. ويظن أنه يملك الحق في ذلك. وهل يمكن أن ينتظر المرء المساعدة أو المثل الطيب من الأنانيين، الطماعين، الشواذ، الكسالى الذين يجيئون إلى القرية فقط ليحقروا ويسرقوا ويخدعوا ويرهبوا الفلاح؟ وتذكرت أولجا منظر عجائز الفلاحين المستضعفين عندما قيد كرياك في الشتاء الماضي ليعاقب بالجلد...وامتلأت روحها بالألم والشفقة تجاه هؤلاء الناس، وصارت طوال الطريق تلتفت إلى بيوتهم.

وبعد أن رافقتهما ماريا لمسافة ثلاثة فراسخ توقفت لتودعهما. ثم ركعت على ركبتيها وولولت واضعة رأسها على الأرض.

– ها أنا وحدي ثانية.. يا لي من تعسة! يا لي من مسكينة!

وصارت تولول لمدة طويلة وكلما التفتت أولجا رأتها راكعة على ركبتيها ممسكة رأسها بيديها والغربان تحوم حولها.

وارتفعت الشمس إلى كبد السماء، وصار الجو حارًّا، واختفت قرية جوكوفو تمامًا. ولكن السير يخفف عن أولجا وساشا، وسريعًا ما نسيتا القرية وماريا، وصارتا مرحتين، وكان كل ما تراياه في الطريق يطربهما. ها هو تل صغير. وها هو طابور من أعمدة التلغراف كل عمود وراء الآخر متجهين وجهة غير معلومة ثم يختفي في الأفق ويسمع طنين غريب في الأسلاك الممدودة بينها. وها هي عزبة صغيرة ترى من بعد وسط الخضرة، يتصاعد منها الدخان ويخيل للمرء- لسبب غير مفهوم- أن الحياة هناك سعيدة. وها هو هيكل عظمي لحصان. كانت العصافير تزقزق بلا انقطاع، وتنادي القبرات بعضها البعض، ويصرخ طير الدرجاتش كما لو كان أحدهم يجذبه من منقاره الطويل.

وعند الظهر وصلت أولجا وساشا إلى قرية كبيرة، وفي شارع واسع من شوارعها قابلتا العجوز طاهي الجنرال جوكوف. ويبدو أنه كان يقاسي الحر بصلعته الحمراء التي ينضح منها العرق وتلمع تحت أشعة الشمس. ولأول وهلة لم يتعرف أحدهما على الآخر ثم التفتا وعرفا بعضهما في نفس اللحظة وواصل كل طريقه دون تبادل أي كلمة. واختارت أولجا منزلًا يظهر عليه الغنى وتوقفت أمام نوافذه المفتوحة، وانحنت ثم قالت بصوت مرتفع رفيع، مغنية:

- أيها المسيحيون الطيبون. بحق رحمة المسيح. اعطوني شيئًا من رحمتكم. رحم الرب موتاكم وأسكنهم سماواته!

وغنت ساشا:

- أيها المسيحيون الطيبون. اعطونا بحق المسيح. اعطونا شيئًا من رحمتكم رحم الرب موتاكم....

تمت

العنبر رقم ٦

شخصيات الرواية

إيفان ديمترتش جروموف	Ivan Dimitrich Gromov
أندريه يفيمتش راجين	Andrei Iefimich Ragin
ميخائيل أفريانتش	Michail Averianich
يفجيني فيودريتش خوبوتوف	Evgeniy Fiodorich Khobotov
نيكيتا	Nikita
موسيكا	Mosseika

- ١ -

في فناء المستشفى وفي وسط غابة صغيرة كثيفة من الشجيرات والحشائش يقع مبنى صغير ذو سقف معدني صديء تخرج منه مدخنة قديمة مائلة، سلماته الخشبية معطنة ومغطاة بالحشائش وعلى واجهته بقايا من طلاء. وتطل تلك الواجهة على المبنى الرئيسي للمستشفى، أما مؤخرته فتطل على الحقل الذي يفصله عن المبنى سور المستشفى الرمادي اللون ذو المسامير، ويكتسب المبنى بالسور ذي المسامير المقلوبة ذلك المنظر الكريه القاتم الخاص بكل مباني المستشفيات والسجون عندنا.

إذا لم تكن أشواك النباتات تخيفكم فلنتقدم معًا على هذا الطريق الضيق المؤدي لذلك المبنى لنرى ما بداخله. فإذا فتحنا الباب الأول نجد أنفسنا في الفناء الداخلي حيث ترى بجوار الجدار وبجوار الفرن أكوامًا من مخلفات المستشفى: مراتب ومعاطف، وسراويل وقمصان قديمة وأحذية بالية لا تصلح لشيء. كل هذا مخلوط وملقى في كومة تتعفن وتتصاعد منها رائحة خانقة.

وغالبًا ما يضطجع الحارس نيكيتا على هذه الكومة. غليونه في فمه، وهو جندي مُسرّح بهتت شرائطه الحمراء، ذو وجه قاس مسن وحواجب كثيفة تضفي على وجهه سمة كلب البراري. وأنفه أحمر. وهو غير طويل.

يوحي منظره بأنه نحيف ولكن عوده صلب وقبضاته قوية. وهو ينتمي إلى تلك الطائفة من الناس التي تتسم بالطيبة والإيجابية والطاعة والغباء. تلك الطائفة التي تحب النظام أكثر من حبها لأي شيء آخر في العالم، لذا فإنهم مؤمنون بأنه من الضروري استعمال الضرب معهم، فهو يضربهم على الوجه وفي الصدر وعلى الظهر أو على أي مكان آخر وهو متأكد تمامًا أنه لا يمكن للنظام أن يستتب هنا بدون استعمال الضرب.

وبعدئذ تدخلون إلى غرفة كبيرة واسعة تشغل الجزء الأساسي من المبنى، جدرانها ملطخة بطلاء قذر سماوي اللون. وسقفها مهبب- فمن الواضح أن الفرن يعمل ويدخن طوال الشتاء وعندئذ يكون الجو في الغرفة حارًّا ومشبعًا برائحة الخشب المحروق. أما النوافذ فإنها مشوهة من الداخل بقضبان حديدية والأرضية رمادية قذرة. وروائح الكرنب المسلوق وفتيل المصباح المحترق والبق والنشادر تملأ جو الغرفة، وفي الوهلة الأولى تذكرك هذه الروائح ببيت الوحوش في حديقة الحيوان.

وعلى الأسرة المثبتة في الأرض يجلس رجال مرتدون معاطف زرقاء وطواقي.. المجانين. عددهم خمسة. كلهم من الطبقة المتوسطة إلا واحدًا من أصل نبيل. أولهم من جهة الباب رجل من أبناء الطبقة المتوسطة ذو شارب أحمر لامع وأعين دامعة. وهو يجلس واضعًا ساقيه تحته. ينظر إلى نقطة ثابتة. ليله ونهاره حزين يهز رأسه ويتنهد بعمق وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة مريرة. قليلًا ما يشترك في الحديث وعادة لا يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه، يأكل ويشرب بطريقة ميكانيكية وفقط عندما يقدم إليه الطعام. ويدل سعاله المؤلم الحاد ونحافته وخدوده الموردة على أنه

مسلول.

وبعده يجلس عجوز ضئيل الحجم جم الحيوية والحركة ذو ذقن مدبب وشعر أسود مجعد كشعر الزنجي. أثناء النهار يسير في الغرفة من نافذة لأخرى أو يجلس على سريره على الطريقة التركية ودائمًا يصفر كطائر الثلج ويغني متمتمًا ويقهقه. كما يظهر مرحه الطفولي وحيويته أيضًا بالليل، ذلك عندما يستيقظ ليصلي أو ليدق بيديه على صدره أو لينقر على الباب بأصبعه. ذلك هو اليهودي موسيكا، عبيط، جن من عشرين عامًا عندما أتت النيران على ورشته الصغيرة لصناعة الطواقي.

وهو الوحيد من نزلاء عنبر نمرة ٦ الذي يسمح له بالخروج من المبنى بل وإلى خارج المستشفى. وهو متمتع بهذا الحق بصفته نزيل قديم، وبصفته عبيط هادئ غير مؤذ، وبصفته مضحك المدينة. وقد اعتاد أهل المدينة رؤيته في الشوارع وسط ثلة من الأطفال والكلاب. وهو يمشي في الشارع مرتديًا معطف المستشفى وعلى رأسه طاقيته المضحكة، منتعلًا حذاءه أو حافيًا، وأحيانًا بدون سراويل ويقف أمام الحوانيت ليشحذ كوبيكا. أحيانًا يعطونه كفاس[1] وأحيانًا كسرة خبز وأحيانًا كوبيكا. وهكذا يعود إلى المستشفى عادة شبعًا غنيًا. ويستولى نيكيتا على كل ما يحضره. يفعل الجندي ذلك بقسوة، ويقلب جيوبه كلها ويشهد الله على أنه لن يسمح بعد هذه المرة قط بخروج اليهودي من المستشفى ويقسم بأنه يكره عدم النظام أكثر من أي شيء في العالم.

(١) الكفاس: مشروب روسي وهو منقوع بذور نبات يشبه العرقسوس عندنا. (المترجم)

وموسيكا هذا خدوم، فهو يقدم لزملائه الماء ويغطيهم وهم نيام، ويعد بأنه سيحضر لكل منهم في المرة القادمة كوبيكا وسيصنع لكل منهم طاقية جديدة، كما أنه يطعم بالملعقة جاره المشلول الذي يقع سريره عن يساره. وهو لا يفعل ذلك بدافع الشفقة أو بشعور إنساني بل متأثرًا بجروموف جاره من ناحية اليمين، فهو يقلده ويطيعه.

إيفان ديمترتش جروموف رجل في الثالثة والثلاثين من عمره، من أصل نبيل. كان محضرًا، وسكرتيرًا في المحافظة. وهو يقاسي من وهم بأنه مطلوب القبض عليه، يرقد على سريره ملتفًا حول نفسه كحلقة أو يسير من ركن لآخر، ونادرًا ما يجلس، وهو دائمًا قلق مضطرب مشدود الأعصاب كما لو كان يتوقع حدوث شيء ما. ويكفي أي حفيف في المدخل أو أي نداء في الفناء الخارجي لأن يرفع رأسه متنصتًا: هل حضروا للقبض عليه! هل يبحثون عنه؟ وعندئذ يرتسم على وجهه تعبير قلق لا نهائي وقرف.

وإني لمعجب بوجهه العريض البارز العظام، ذلك الوجه الدائم الشحوب والتعاسة. ويعكس هذا الوجه كالمرآة روحه التي يعذبها الصراع والرعب الدائم، وتعبيرات وجهه غريبة تدل على المرض، ولكن قسماته الرقيقة- الدالة على العذاب العميق المخلص- قسمات عاقلة وراقية، وفي عينيه بريق دافئ غير عليل.

وإني لمعجب به شخصيًّا، فهو مؤدب، خدوم، مهذب فوق العادة مع الجميع إلا مع نيكيتا، فعندما يسقط من أحدهم زرار أو ملعقة نجده يهب من سريره ليلتقط ما وقع ويعطيه لصاحبه، صباحًا يرجو لرفاقه صباحًا طيبًا ومساءً يتمنى لهم ليلة هادئة.

وبخلاف قلقه الدائم يظهر جنونه كالآتي: أحيانًا في المساء يلملم معطفه على جسمه ويبدأ في السير من ركن لآخر مارًّا بين الأسِرّة. ويرتجف جسمه كله وتصطك أسنانه كما لو كان يعاني حمى شديدة. وفجأة يتوقف وينظر لرفاقه. ومن الواضح أنه يرغب في أن يقول لهم أشياء في منتهى الأهمية. ولكنه في الغالب يظن أنهم لن يصغوا إليه أو لن يفهموه، لذا يهز رأسه بشدة ونفاد صبر ويواصل خطواته. ولكن أخيرًا تتغلب رغبته في الكلام على أية اعتبارات أخرى. ويبدأ في الكلام بحرارة. وكلامه مشوش محموم يشبه الهذيان. غير إنك تلمس في كلماته وصوته شيئًا طيبًا جدًّا. وعندما يتكلم تستطيع أن تتعرف فيه على المجنون وعلى الإنسان. ومن الصعوبة بمكان أن تنقل إلى الورق كلماته المجنونة. فهو يتكلم عن نذالة البشرية وعن الاضطهاد. تلك النذالة وذلك الاضطهاد اللذان يخنقان الحق. ويتكلم عن الحياة الرائعة التي ستبنى على الأرض بمرور الوقت. ويتكلم عن قضبان النوافذ التي تذكره كل دقيقة بقسوة المضطهدين. وبذلك يبدو حديثه أشبه بمقاطع غير منتظمة ومختلطة من ملاحم قديمة ولكن لم تتم بعد.

- ٢ -

من اثنى عشر إلى خمسة عشر عامًا كان الموظف جروموف يقطن في منزله الخاص الواقع في الشارع الرئيسي بالمدينة. وكان جروموف هذا رجلًا جادًّا محترمًا في بحبوحة من العيش. وكان له ولدان. سرجيي وإيفان وعندما كان سرجيي طالبًا في السنة الرابعة في الجامعة مرض بالسل الحاد وتوفي. وكما لو كانت هذه الوفاة بداية لسلسلة من المصائب التي هطلت على عائلة جروموف. فبعد أسبوع من وفاة سرجيي قبض على الأب العجوز، وحوكم بتهمة التزوير والاختلاس. وسريعًا ما توفي في مستشفى السجن إثر تيفود. وبيع المنزل والمنقولات بالمزاد. وهكذا أصبح إيفان ديمترتش وأمه بدون أي دخل.

وقبل وفاة الأب كان إيفان ديمترتش يعيش في بطرسبرج حيث كان يدرس في الجامعة. وكان والده يرسل له شهريًا من ستين إلى سبعين روبلًا وبذلك لم تكن لديه أي فكرة عن الحاجة. أما الآن فكان عليه أن يغير حياته تغييرًا جذريًا. فأصبح مضطرًا لأن يعطي دروسًا خصوصية من الصباح إلى المساء لقاء أجر زهيد، وأن يعمل بالنسخ ومع ذلك كان يتضور جوعًا لأنه كان يرسل كل الدخل إلى والدته. ولم يتحمل إيفان ديمترتش هذه الحياة طويلا. فانهارت معنوياته وساءت صحته فترك الجامعة وعاد إلى المدينة حيث حصل بالواسطة على وظيفة مدرس في مدرسة المدينة ولكنه

لم يستطع أن يتفاهم مع زملائه. ولم يعجب به التلاميذ فترك الوظيفة.. وتوفيت والدته. وعاش نصف سنة بدون عمل.. على الخبز والماء.. ثم عمل محضرًا. وظل يشغل هذه الوظيفة إلى أن طرد منها بسبب المرض.

ولم يكن يظهر أبدًا بمظهر الإنسان الصحيح حتى عندما كان شابًا يدرس. فقد كان دائمًا شاحب اللون نحيفًا وكثيرًا ما كان يصاب بنزلات البرد وكان يأكل قليلًا وينام نومًا مضطربًا. وكانت رأسه تدور ويصاب بانهيار عصبي بعد كأس واحد من الخمر. وكان يحب أن يكون وسط الناس ولكن لكونه سريع الغضب ولدقته في المعاملة لم يستطع أن يتقارب مع أحد ولم يكن له أصدقاء. وكان يتحدث عن أهل المدينة باحتقار، ويقول إن جهلهم الحاد وحياتهم الحيوانية الخاملة تجعله يحس بالقرف والغثيان وكان يتكلم بصوت عال رفيع، بحرارة، وحتمًا إما بغضب وعدم رضا وإما بتعجب وانبهار ودائمًا بإخلاص. وأيًا كان الحديث فهو دائمًا يرجعه لموضوع واحد: الحياة في المدينة خانقة ومملة، ولا يوجد عند الناس اهتمامات راقية، بل يحيون حياة قاتمة بدون معنى ويحاولون زخرفتها بالعنف والشذوذ. والمداهنة، إن الأنذال شبعانون ومكسيون والشرفاء يقتاتون بالكاد، والحاجة ملحة إلى مدرسة وإلى جريدة محلية ذات اتجاه شريف وإلى مسرح وإلى مكتبات عامة وإلى تكاتف المثقفين، إن المجتمع في حاجة إلى أن يعي نفسه جيدًا ليملأه الرعب. وفي مناقشته لأحوال الناس كان يضع اللونين الأبيض والأسود فقط ولا يستعمل ما بينهما من ألوان، فالإنسانية عنده تنقسم إلى شرفاء وأنذال، لا وسط، وكان يتكلم عن المرأة والحب بحرارة واندفاع ومع ذلك لم يعشق مرة.

وبالرغم من طبعه الحاد وعصبيته فقد كان محبوبًا في المدينة وكان أهلها يدللونه بـ «فانيا»، فإن رقته الموروثة ومعاملته الشريفة وأخلاقه العالية وحلته القديمة ومظهره العليل ومصائبه العائلية جعلت الناس يشعرون نحوه بشعور طيب دافئ حزين. بالإضافة إلى ذلك فلقد كان مثقفًا، قرأ كثيرًا. أحيانًا كان يجلس في النادي تتخلل أصابعه بعصبية شعر لحيته ويتصفح المجلات والكتب، وعلى وجهه لا يرى تعبير من يقرأ بل من يبتلع الكلمات دون أن يمضغها، ومن الممكن اعتبار القراءة إحدى عاداته المرضية، ذلك أنه كان يلتهم كل ما يقع في يده حتى إذا كان ذلك صحفًا من العام السابق. أما في بيته فكان يقرأ دائمًا مضطجعًا.

- ٣ -

في صباح يوم من أيام الخريف رفع إيفان ديمترتش ياقة معطفه وسار في حواري وأزقة المدينة القذرة متجهًا إلى أحد الأهالي ليحصل منه أحد إيصالات المحكمة، وكان مزاجه كعادته صباحًا معتلًّا، فقابل في الطريق سجينين مقيدين في حراسة أربعة من رجال الشرطة المسلحين. وقبلًا، كثيرًا ما قابل إيفان ديمترتش سجناء، وكانوا دائمًا يجعلونه يشعر بالعطف والحزن عليهم وبإحساس مبهم بالذنب، أما هذه المرة فقد داهمه إحساس غريب غير عادي، فلقد شعر لسبب ما فجأة بأنه من الممكن أن يقيد ويقاد بهذه الصورة خلال هذه الطرقات القذرة إلى السجن. وفي طريق العودة بجوار مكتب البريد قابل أحد رجال الشرطة من معارفه، فحياه الشرطي وسار معه عدة خطوات، فخيل له أن ذلك أمر داع للشك. وطوال اليوم أثناء وجوده بالمنزل لم يستطع أن يطرد من مخيلته صورة المساجين والجنود المسلحين، ومنعه قلق نفسي غير مفهوم من القراءة والتركيز، ومساء لم يضئ غرفته ولم يستطع النوم ليلًا. وظل يفكر أنه من الممكن أن يقبض عليه وأن توضع القيود في يديه وأن يقاد إلى السجن.

لقد كان يعلم أنه لم يقترف ذنبًا، وكان متأكدًا أنه- في المستقبل- لن يقتل أو يحرق أو يسرق، ولكن أليس من الممكن أن يرتكب المرء جرمًا بدون قصد وبالصدفة؟ والتهمة الملفقة؟ وأخيرًا الغلطة القضائية أليس

هذا ممكنًا؟ ألا يقول المثل الشعبي: «يا ما في السجن مظاليم؟» إن الغلطة القضائية في ظل نظام القضاء الحالي ممكنة جدًا. إن أولئك الناس الذين ينظرون لآلام الغير نظرة عمل مثل القضاة ورجال الشرطة والأطباء قد قساهم التعود حتى أصبحوا لا يستطيعون النظر إلى عملائهم نظرة غير شكلية حتى لو رغبوا في عكس ذلك. ومن تلك الناحية لا فرق بينهم وبين الجزار الذي يذبح الخراف والعجول غير عابئ بالدم. وفي ظل تلك النظرة الشكلية إلى الشخص، لكي يحرم الإنسان من حقوقه ويحكم عليه بالنفي، يحتاج القاضي إلى شيء واحد فقط.. الوقت. الوقت الكافي للقيام ببعض الإجراءات الروتينية التي يقبض عنها القاضي مرتبه. وبعد ذلك ينتهي كل شيء. ولتحاول بعد ذلك أن تبحث عن العدل والحماية في تلك المدينة الصغيرة القذرة التي تقع على بعد مائتي فرسخ من خط- السكة الحديد- ثم أليس من المضحك أن يفكر المرء في العدالة عندما يعتبر المجتمع أن كل اضطهاد هو ضرورة مسببة وعاقلة وهادفة وأن كل حكم يصدر بالعفو أو البراءة يقابل بشعور من عدم الرضا والرغبة في الثأر؟

وفي الصباح قام إيفان ديمترتش من على سريره مرعوبًا. ينضح جبينه عرقًا باردًا. ومتأكدًا تمامًا أنه من الممكن أن يقبض عليه في أي دقيقة. وكان يعتقد أنه ما دامت أفكار الأمس ظلت تطارده طوال هذه المدة. إذًا ففيها شيء من الحقيقة. فليس من المعقول أن تتوارد أفكار كهذه بدون أي سبب.

ها هو شرطي قد مر أمام نافذته: لا بد أن هناك سببًا. ها هما شخصان واقفان قرب المنزل صامتين. لماذا يصمتان؟

وهكذا صار إيفان ديمترتش يتعذب ليل نهار. أصبح يتصور أن كل من

يمر أمام النافذة أو يدخل الفناء فهو جاسوس أو مخبر.

وعادة عند الظهر يمر مأمور قسم البوليس في عربته ذات الحصانين قادمًا من عزبته الواقعة بجوار المدينة. ولكن يخيل لإيفان ديمترتش كل مرة أن العربة تسير بسرعة غير عادية وأن على وجه المأمور يرتسم تعبير خاص: من الواضح أنه يسرع إلى القسم ليعلن عن وجود مجرم خطير في المدينة.

وأصبح إيفان ديمترتش ينتفض عند سماع جرس الباب. ويزداد قلقه إذا رأى عند صاحبة المنزل أي زائر غريب. ويبتسم ويصفر إذا قابل أي شرطي حتى يظهر نفسه بمظهر الهادئ غير المهتم. وأصبح لا ينام الليل ولكنه كان يشخر ويتنهد حتى يوهم صاحبة المنزل بأنه مستغرق في النوم. لأنه إن كان لا ينام فلا بد أن ضميره يؤنبه عن جرم ما- ويا له من دليل! صحيح أن الحقائق والمنطق السليم تثبت أن كل هذه المخاوف ما هي إلا هراء واضطراب في الأعصاب وأنه عند النظر إلى السجن نظرة شاملة فإنه في الواقع غير مخيف طالما كان الضمير مستريحًا. ولكنه كلما فكر بعقل ومنطق أكثر ازداد اضطرابه وعذابه الروحي. وكان مثله كمثل الرجل الضال الذي يريد أن ينظف لنفسه مكانًا في غابة عذراء، كلما عمل بفأسه في الأشجار ازدادت الغابة كثافة. وأخيرًا عندما وجد إيفان ديمترتش أن التفكير السليم غير مجد لم يعد يفكر وترك نفسه يغرق في الخوف واليأس.

فاصبح يحب الوحدة ويتجنب الناس. ولقد كان قبلًا يكره وظيفته فأصبحت الآن بالنسبة له لا تطاق، فصار يخاف من أن يؤذى في العمل، مثلًا، أن يضع له أحدهم رشوة في جيبه دون أن يلاحظ ثم تكتشف، أو أن يخطئ بالصدفة في إحدى الأوراق الرسمية خطأ يمكن اعتباره تزويرًا، أو

أن يفقد شيئًا من مال الحكومة الموضوع في عهدته. ومن الغريب أنه قبلًا لم يكن يتميز بتفكير سلس مبتكر لهذه الدرجة التي وصل إليها الآن حيث يستطيع يوميًا أن يخترع آلاف الطرق والأسباب التي من الممكن أن تجعله يقع تحت طائلة القانون. ومن ناحية أخرى لقد فقد كل اهتمام بالعالم الخارجي وخصوصًا اهتمامه بالكتب، كما فقد قوة ذاكرته.

وفي ربيع تلك السنة عندما ذاب الجليد اكتشفت قرب المقابر جثتان شبه عفنتان لعجوز وطفل عليهما آثار تدل على أن الوفاة لم تكن طبيعية، وصارت قصة الجثتين والمجرم المجهول حديث المدينة. وحتى لا يظن أن إيفان ديمترتش هو القاتل صار يسير في شوارع المدينة مبتسمًا وإذا قابل أحدًا من معارفه فإنه يشحب ويحمر ويؤكد أنه لا يوجد عمل أكثر نذالة من قتل الضعفاء الذين لا سند لهم، ولكنه سريعًا ما مل هذا الوضع الكاذب، وبعد تفكير قليل قرر أن أفضل شيء في وضعه هذا هو أن يختبئ في مخزن المنزل بالبدروم. وظل في البدروم نهارًا ثم ليلة ثم نهارًا آخر وتجمدت أطرافه من البرد القارس فانتظر ظلمة المساء وذهب إلى غرفته متلصصًا، وظل واقفًا في منتصف الغرفة طوال الليل ليلتقط أي صوت. وفي الفجر عندما حضر إلى المنزل عمال- كان إيفان ديمترتش يعلم جيدًا أن صاحبة المنزل قد اتفقت معهم عل الحضور لإصلاح الفرن في المطبخ، صور الخوف له أنهم رجال شرطة متخفون في ملابس عمال، فخرج بهدوء من الشقة والرعب يملأ قلبه، وأطلق ساقيه للريح بلا سترة عاري الرأس.. فجرت وراءه الكلاب نابحة، وصرخ رجل خلفه، وتصور إيفان ديمترتش أن كل قوى الاضطهاد في العالم تجمعت لتطارده.

أمسك به الناس، وأعادوه إلى منزله، وذهبت صاحبة المنزل للطبيب، وحضر الطبيب أندريه يفيمتش- الذي سنتحدث عنه فيما بعد- ووصف له كمادات باردة على الرأس وأعطاه نقطًا من محلول مهدئ، وهز رأسه بحزن وأخبر صاحبة المنزل أنه لن يحضر مرة أخرى لأنه لا داعي لأن نمنع الناس من أن يفقدوا عقولهم في هدوء.

ولما لم يكن عند إيفان ديمترتش دخل يسمح له بالمعيشة والعلاج في المنزل، فقد نقل إلى المستشفى ووضع في عنبر المرضى بأمراض تناسلية، ولكنه لم يكن ينام ليلًا، وأصبح يقلق المرضى، فأمر أندريه يفيمتش بأن ينقل إلى العنبر نمرة ٦.

وخلال عام نسيت المدينة إيفان ديمترتش تمامًا، أما كتبه التي كومتها صاحبة المنزل في ركن من الفناء الخارجي فقد مزقها الأطفال.

- ٤ -

وكما قلت، فقد كان اليهودي موسيكا يجاور إيفان ديمترتش من اليسار، أما جاره من ناحية اليمين فهو فلاح سمين بل مستدير كالكرة، ذو نظرة غبية ووجه لا يحمل على قسماته أي معنى، وهو حيوان ساكن نهم متسخ. فقد من زمن بعيد أي مقدرة على التفكير أو الإحساس، ودائمًا تتصاعد منه رائحة أذى حادة وخانقة.

وعندما ينظف نيكيتا تحته وحوله يضربه بفظاعة وكل قوة. والفظيع هنا ليس أنه يضرب- فمن الممكن التعود على ذلك- ولكن الفظيع هو أن هذا الحيوان الغبي لا يتأثر بالضرب فلا يصدر عنه أي صوت أو حركة ولا يظهر أي تعبير في عينيه بل فقط يتأرجح كالبرميل الثقيل تحت وطأة الضربات.

أما خامس نزلاء العنبر نمرة ٦ وآخرهم فهو رجل كان يشتغل في البريد بالتصنيف، أشقر صغير ونحيف. إذا نظرت إلى عينيه الذكيتين الهادئتين التي تنظر إليك بوضوح ومرح يخيل إليك أنه يخفي سرًّا مهمًّا سارًّا. إنه يخفي أشياء ما تحت الوسادة وتحت المرتبة، لا خوفًا من أن يستولى عليها أو يسرقها أحد بل كان يخفيها خجلًا. وكان يقف أحيانًا عند النافذة موليًّا ظهره لبقية الرفاق ويضع شيئًا ما على صدره ويحني رأسه ناظرًا لهذا الشيء فإذا اقترب منه أحد فإنه يحمر خجلًا وينزع هذا الشيء ولكن من السهولة معرفة هذا السر.

كان يقول أحيانًا لإيفان ديمترتش:

- فلتهنئني، لقد قدم اسمي للحصول على وسام «ستانسلاف» من الدرجة الثانية، صحيح أن ذلك الوسام يمنح فقط للأجانب، ولكن لسبب لا أعرفه استثنوني من هذا الشرط.

ثم يبتسم ويهز كتفيه قائلًا:

- إنها لمفاجأة بالنسبة لي.

فيرد عليه إيفان ديمترتش بتجهم قائلًا:

- إني لا أفهم شيئًا في هذه الأمور.

فيواصل المصنف السابق مبتسمًا:

- وهل تعرف ما أرغب في الحصول عليه إن آجلًا أو عاجلًا؟ إني واثق من أني سأحصل على وسام «النجم القطبي» السويدي. إنه لوسام يستحق التعب فهو عبارة عن صليب أبيض ذي شريط أسود، في غاية الجمال.

ويبدو أن الحياة لا تسير سيرًا أكثر رتابة في أي مكان آخر منها في هذا المبنى. ففي الصباح يتوجه المرضى ما عدا المشلول والفلاح السمين إلى الفناء الداخلي ليغتسلوا من برميل المياه ويتجففوا بخرق المعاطف ثم يحضر لهم نيكيتا الشاي لكل مقدار كوز فيعبونه من كيزان صفيح. وفي الظهر يتناولون شوربة كرنب وبرغل مسلوق وفي المساء يتكون عشاؤهم مما تبقى من البرغل. وفي الفترة التي تتخلل ذلك يرقدون أو ينامون أو يسيرون جيئة وذهابًا من ركن لآخر، أو ينظرون من النافذة، وهكذا كل يوم، حتى مصنف البريد فإنه يتكلم يوميًا عن نفس الأوسمة.

وقليلًا ما ترى وجوهًا جديدة في العنبر رقم ٦، إذ قرر الطبيب عدم قبول نزلاء جدد، أما الراغبون في زيارة مستشفى المجاذيب فهم قلة في هذا العالم. وكل شهرين يزور المبنى سيمون لازاريتش الحلاق، ولن نتحدث عن كيفية قيام الحلاق بمهمته وكيف يساعده نيكيتا في تأدية هذه المهمة، ولن نتحدث عما يصيب المرضى بمجرد ظهور الحلاق الضاحك المخمور.

وبخلاف الحلاق لا يزور أي إنسان هذا المبنى وبذلك كتب على المرضى ألا يروا من العالم الخارجي كل يوم سوى نيكيتا.

ولكن من مدة قصيرة سرت في المستشفى إشاعة غريبة إلى حد كبير.

لقد شاع أن الطبيب أصبح يزور العنبر رقم ٦.

- ٥ -

إشاعة غريبة!

الدكتور أندريه يفيمتش راجين رجل غير عادي إلى حد ما. يقال إن في مطلع شبابه كان متدينًا جدًا وكان يعد نفسه ليسلك طريق رجال الدين، وعندما أنهى المدرسة في عام ١٨٦٣ قرر أن يدرس في الأكاديمية الدينية، ولكن والده- الطبيب الجراح- هزأ به وأعلن أنه لن يعتبر أندريه ابنه إذ أصبح الأخير قسيسًا. ولست أعلم نصيب تلك الرواية من الصحة، ولكن أندريه يفيمتش نفسه كثيرًا ما اعترف بأنه أبدًا لم يحب الطب أو أيًّا من العلوم الطبيعية عمومًا.

ومهما كان فإنه أنهى دراسته في كلية الطب ولم يصبح رجل دين، ولم يظهر عليه أي تدين، كما لم يكن يتشبه برجال الدين لا الآن ولا في بداية حياته كطبيب يوحي مظهره الخارجي بثقل الظل والفظاظة كالفلاح الجلف، ويذكرك وجهه ولحيته وشعره الملتصق برأسه وبنيته القوية الغير متناسقة بصاحب مقهى- على الطريق الرئيسي- متخم وحاد الطبع، وله وجه قاس ذو عروق زرقاء وأعين صغيرة وأنف أحمر، وهو طويل القامة عريض المنكبين، وقبضاته ضخمة يبدو أن ضربة منها قد تؤدي بالمضروب، ولكن خطواته هادئة ومشيته متزنة متلصصة، وإذا تقابل مع أحد في ممر ضيق فهو

دائمًا الذي يتوقف أولًا ليسمح للآخر بالمرور ويقول «آسف» لا بصوت غليظ كما هو متوقع بل بصوت رفيع هادئ، وعلى رقبته ورم يمنعه من ارتداء قمصان بياقة منشاة مقفولة، لذا فهو يرتدي دائمًا قمصانًا من قماش لين بسيط. وعمومًا لباسه لا يشبه لباس طبيب، فهو ينتعل الحذاء الواحد لمدة عشر سنوات متصلة أما اللباس الجديد الذي يبتاعه من حانوت اليهودي فيبدو عليه كالقديم. وهو يستقبل المرضى ويأكل ويقوم بزياراته بنفس الرداء، ذلك لا لبخله بل لعدم اهتمامه بمظهره الخارجي.

وعندما قدم أندريه يفيمتش إلى المدينة ليشغل وظيفته كطبيب المستشفى وجد «مؤسسة البر» هذه في حالة فظيعة. فيكاد المرء يختنق في ممرات وعنابر وفناء المستشفى من رائحة الأذى، وكان عمال المستشفى وعاملاتها بعائلاتهم وأولادهم يشاركون المرضى عنابرهم، وكان الجميع يشكون من الصراصير والبق والفئران، ولم يكن هناك أي أجهزة في قسم الجراحة بل لم يكن هناك إلا مشرطان في كل المستشفى. ولم يكن بالمستشفى أجمعه ترمومتر واحد، والبطاطس تحفظ في الحمامات، وملاحظ المستشفى وكبير الممرضين وكل العاملين ينهبون المرضى باستمرار، ومما يقال عن الطبيب القديم- الذي كان يشغل وظيفة طبيب المستشفى قبل أندريه يفيمتش- أنه كان يبيع كحول المستشفى سرًّا، كما كون لنفسه حريمًا خاصًّا من عاملات المستشفى والمرضى النساء. وكان أهل المدينة يعلمون جيدًا كل هذا بل كانوا يضخمون هذه الحقائق ومع ذلك كانوا ينظرون لهذه الأشياء بهدوء، بل كان البعض يبرر ذلك بقوله إن المستشفى لا تضم إلا مرضى الطبقة الفقيرة والمتوسطة ومرضى الفلاحين

الذين لا يمكن أن يكونوا مستائين من هذا الوضع إذ إن حياتهم المنزلية أسوأ من هذا بكثير. وليس من المعقول أن نقدم للمرضى البط المشوي! وكان البعض الآخر يبرر ذلك بقوله إن المدينة وحدها دون مساعدة المحافظة لا تستطيع أن تقوم على الأوجه الأكمل بأعباء المستشفى، وحمدًا لله على أن بالمدينة مستشفى فذلك خير من لا شيء. ولم يقرر مجلس المحافظة فتح مستشفى أو عيادة خارجية في المدينة أو بجوارها اعتمادًا على وجود هذه المستشفى.

وبعد أن تفقد أندريه يفيمتش المستشفى وجد أنها لا أخلاقية بل ومضرة بالصحة العامة، كما أنه رأى أن أفضل ما يمكن عمله هو إطلاق سراح المرضى وإغلاق المستشفى. ولكنه وجد أن الأمر لا يتعلق فقط بإرادته الشخصية وأنه لا فائدة تجنى من طرد القاذورات المادية والأخلاقية من مكان طالما أنها ستنتقل إلى مكان آخر، لذا فلا بد من الانتظار حتى يتطهر كل شيء من تلقاء نفسه، وبالإضافة إلى ذلك- إذا شيد الناس مستشفى وتحملوا مساوئها فإن ذلك يعني أنهم في حاجة إليها، كما أن جميع المعتقدات البالية والأشياء القذرة الوضيعة ضرورية لأنها بمرور الوقت تتحول إلى شيء مفيد، كالروث حين يختلط بالتراب. ولا يوجد شيء طيب على ظهر الأرض لم يحتو في صورته الأولى على بعض القذارة.

وعندما تسلم أندريه يفيمتش مهام وظيفته كان من الواضح أن نظرته إلى هذه الفوضى تتسم باللامبالاة، فقد طلب من عمال المستشفى عدم المبيت في العنابر، ثم طالب بوضع صوانين للأجهزة الطبية. أما الملاحظ وكبير الممرضين ورئيسة الممرضات فقد بقوا في أماكنهم.

ويحب أندريه يفيمتش العقل والشرف حبًّا جمًّا ولكنه لا يستطيع أن يصنع حوله حياة عاقلة وشريفة لأنه لم يكن يتمتع بما فيه الكفاية من قوة العزيمة والإيمان بأنه على حق، ولم يكن يستطيع الأمر والنهي والإلحاح، كأنه قد أخذ على نفسه عهدًا بعدم رفع صوته أو استعمال صيغة الأمر أبدًا، فمن الصعب عليه أن يقول «اعطني!» أو «احضر!»، ومثلًا عندما يريد أن يأكل أو يتناول الشاي فإنه يتنحنح مترددًا ثم يقول للطباخة: «ماذا عن غذائي؟» أو «ماذا عن الشاي؟..». لقد كان مستحيلًا عليه أن يأمر ملاحظ المستشفى بالكف عن السرقة أو أن يلغي هذه الوظيفة الطفيلية الغير ضرورية للمستشفى.

وعندما يخدع أحدهم أندريه يفيمتش أو يتملقه أو يعرض عليه حسابات ملفقة فإن وجهه يحمر كسرطان البحر ويداخله شعور بالذنب، ومع ذلك يعتمد هذه الحسابات، وعندما يشكو له المرضى من الجوع ومن قسوة الممرضات فإنه يخجل ويتمتم كالمذنب قائلًا:

– حسنًا. حسنًا. سأنظر في الأمر.. لا بد أن هناك سوء تفاهم...

وفي أول الأمر كان أندريه يفيمتش يعمل بجد، فقد كان يستقبل المرضى من الصباح حتى الغداء، ويجري الجراحات، بل وكان يولد النسوة. وكانت النساء تقول عنه إنه دقيق الملاحظة ويحدد المرض بسهولة خصوصًا أمراض النساء والأطفال، ولكن بمرور الوقت مل العمل لرتابته وعدم جدواه الواضحة. إذا استقبل اليوم ثلاثين مريضًا غدًا يحضر خمس وثلاثون وبعد غد أربعون وهكذا يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام، ومع ذلك لا يقل معدل الوفاة، ويواصل المرضى الحضور،

ومن المستحيل موضوعيًا أن تقدم مساعدة جدية لأربعين مريضًا في فترة ما بين الصباح والظهر، إذن يجد الإنسان نفسه منغمسًا في ممارسة الخداع، فإن استقبال مائة وعشرين ألفًا من المرضى في العام يعني ببساطة استغفال مائة وعشرين ألف إنسان في العام، ومن المستحيل أن تضع المرضى بأمراض خطيرة في العنابر وأن تطبق عليهم قواعد العلم ذلك لأن القواعد موجودة والعلم لا وجود له. أما إذا تركت التناول الفلسفي للموضوع وأردت أن تتبع القواعد شكليًا فإنه لا بد من توفير النظافة والتهوية لا القذارة، ولا بد من الغذاء الصحي لا الشوربة المطهوة من الكرنب الحامض العفن، ولا بد من وجود مساعدين جيدين لا لصوص.

ثم لماذا نمنع الناس من أن يموتوا إذا كان الموت هو النهاية الطبيعية للإنسان؟ وما الفائدة من مد حياة تاجر أو موظف خمس أو عشر سنوات؟ وإذا اعتبرنا أن هدف الدواء هو تخفيف حدة الألم يقفز إلى الذهن السؤال التالي: ولم نخففها؟ أولًا: يقال إن الآلام تساعد الإنسان على بلوغ الكمال، وثانيًا: إذا تعلمت الإنسانية فعلًا أن تخفف آلامها بالحبوب والنقط فإنها ستهمل الدين والفلسفة تمامًا؛ لأنها للآن تجد فيهما بلسمًا لكل المصائب، بل وتجد فيهما السعادة. إن بوشكين[1] قبل وفاته قاسى آلامًا فظيعة، والمسكين هايني[2] ظل مشلولًا لسنوات طويلة، فلماذا لا يقاسي مثلًا

(١) بوشكين: أشهر شعراء الروس، عاش في أوائل القرن التاسع عشر- المترجم.

(٢) هنري هايني: شاعر ألماني (١٧٩٧ - ١٨٥٦) - المترجم.

أندريه يفيمتش أو ماترينا سافيشنا من المرض إذا كانت حياتهم بدون هذه الآلام ستصبح فارغة لا مضمون لها وأشبه بحياة الأمييا؟

تحت وطأة هذه الأفكار أصيب أندريه يفيمتش باللا مبالاة، وقل ذهابه إلى المستشفى.

- ٦ -

ويمر يومه كالآتي: يستيقظ عادة في حوالي الثامنة، يرتدي ملابسه ويشرب الشاي ثم يجلس إلى مكتبه أو يذهب إلى المستشفى. في المستشفى يجلس مرضى العيادة الخارجية في الممر الضيق المظلم في انتظار بدء الكشف، وفي هذا الممر يسرع العاملون في المستشفى تدق أحذيتهم أرضية الممشى المصنوعة من الطوب. ويمر المرضى النحاف مرتدين معاطف المستشفى، وعلى النقالات جثث الموتى والماعون المليء بالنفايات، ويبكي الأطفال، وتشعر بتيار الهواء البارد، ويعلم أندريه يفيمتش أن هذا الوضع مؤلم بالنسبة لمرضى الحميات والسل. ولكن ما العمل؟وفي غرفة الاستقبال يقابله التمورجي سرجيي سرجيتش، وهو رجل صغير سمين، حركاته حالمة، ذو وجه حليق نظيف ممتلئ، يرتدي حلة جديدة واسعة، وهو أكثر شبهًا بالسيناتور منه بالتمورجي، وله في المدينة عملاء كثيرون، ويرتدي رباط عنق أبيض ويعتبر نفسه أكثرًا علمًا من الطبيب الذي لا عملاء له. وفي غرفة الاستقبال نجد في الركن أيقونة في إطار جميل وبجوارها شمعدان ثقيل محفوظ في جراب، وعلى الجدران صور للكاردينالات وصورة لدير سفيتاجورسك وبجوارها فروع

زهر مجدولة. وسرجيي سرجيتش رجل متدين يذكر الله دائمًا، وهو الذي أمر بوضع الأيقونة كما يأمر كل يوم أحد أن يقرأ أحد المرضى بعض آيات الإنجيل، وبعد القراءة يبخر سرجيي سرجيتش بنفسه كل العنابر.

المرضى كثيرون والوقت ضيق لذا يتكون الكشف من أسئلة قصيرة سريعة ثم تصرف بعض الأدوية كمرهم الاكتيول أو المزيج، وأثناء ذلك يجلس أندريه يفيمتش واضعًا يده على خده غارقًا في تأملاته ويلقي الأسئلة بطريقة ميكانيكية. ويجلس إلى جواره سرجيي سرجيتش يفرك يديه وأحيانًا يتدخل بقوله:

- إننا نقاسي المرض والحاجة لأننا لا نصلي للرب كما يجب. طبعًا!

وفي فترة الاستقبال لا يقوم أندريه يفيمتش بأي جراحات، لقد فقد التعود عليها من مدة طويلة وأصبح منظر الدم يثيره. وعندما يحاول فتح فم طفل لينظر في حلقه ويبكي الطفل مدافعًا عن نفسه بقبضتيه الصغيرتين يشعر الطبيب بدوار تحت تأثير هذا الضجيج وتدمع عيناه فيسرع في كتابة الروشتة ويلوح بيده لتأخذ المرأة طفلها وتخرج سريعًا.

وسريعًا ما يمل خجل المرضى وعجزهم عن شرح حالتهم، وتضجره صحبة التمورجي، ويمل الصور المعلقة على الجدران، ويمل أسئلته التي يكررها دائمًا منذ أكثر من عشرين عامًا، لذا فبعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى يغادر المستشفى، أما باقي المرضى فيستقبلهم التمورجي.

وتدور في رأسه فكرة تفرحه، إنه حمدًا لله لا يوجد عنده من زمن عملاء خصوصيون ولن يقلقه أحد، وعندما يصل أندريه يفيمتش إلى مسكنه يتوجه سريعًا إلى غرفة المكتب ثم يبدأ في القراءة، وهو يقرأ كثيرًا جدًّا

ودائمًا بتلذذ واضح، وينفق نصف مرتبه الشهري على شراء الكتب، وتتكوم الكتب والمجلات المقروءة في ثلاث غرف من غرف مسكنه الست. وهو يحب مؤلفات التاريخ والفلسفة، أما بالنسبة للطب فهو مشترك في مجلة «الطبيب» فقط، وكان يبدأ تصفحها دائمًا من الصفحات الأخيرة. ويقرأ كل مرة عدة ساعات متواصلة دون تعب أو إجهاد، ولم يكن يقرأ بسرعة واندفاع كما كان يفعل إيفان ديمترتش، بل كان يقرأ ببطء، وتعمق، وكثيرًا ما كان يتوقف عند تلك السطور التي تروقه أو التي لا يفهمها. وبجوار الكتاب يوجد دائمًا دورق مملوء بالفودكا وخيارة مملحة أو تفاحة مسلوقة موضوعة على مفرش المكتب رأسًا بلا طبق، وكل نصف ساعة ودون أن يرفع عينيه عن الكتاب يصب لنفسه كأسًا من الفودكا ويحتسيه ثم يتحسس بأصابعه الخيارة ليقضم منها جزءًا.

وفي الثالثة بعد الظهر يتقدم بحذر نحو المطبخ ويسعل ثم يقول:

- داريوشكا.. ماذا عن غدائي..

وبعد أن يتناول الغداء السيئ الطهي إلى حد كبير، يبدأ أندريه يفيمتش في السير في الغرفات عاقدًا يديه على صدره ويفكر، وتدق الساعة الرابعة ثم الخامسة وهو لا يزال يسير ويفكر، وأحيانًا يسمع صرير باب المطبخ ويظهر وجه داريوشكا الأحمر الناعس وتسأله باهتمام:

- أندريه يفيمتش.. ألم يحن ميعاد البيرة؟

- لا.. لم يحن الوقت.. سأنتظر.. سأنتظر..

وعند المساء، عادة يحضر مدير مكتب البريد ميخائيل أفريانتش، وهو الإنسان الوحيد في كل المدينة الذي يستطيع أندريه يفيمتش أن

يتحمله، ولقد كان ميخائيل أفريانتش في الماضي إقطاعيًا غنيًا جدًا، كما كان ضابطًا في سلاح الفرسان، ثم أفلس واضطرته الحاجة إلى العمل في البريد عن كبر، وهو صحيح الجسم نشيط ذو سوالف بيضاء نافشة، وطباعه تدل على تربية نبيلة، وله صوت جهوري لطيف، وهو طيب حساس ولكنه سريع الغضب، وفي مكتب البريد عندما يبدي أحد من الجمهور اعتراضه أو لا يوافق على شيء ما أو حتى يناقش الموظف يحمر وجه ميخائيل أفريانتش وينتفض كل جسده، ثم يصرخ بصوت كالرعد «أخرس!» لذا صار لمكتب البريد سمعة المكان الذي يخاف الناس الذهاب إليه. ويحترم ميخائيل أفريانتش أندريه يفيمتش ويحبه لثقافته ونبل روحه ولكنه يتكبر على بقية أهل المدينة كما لو كانوا من مرءوسيه.

وعندما يدخل عند أندريه يفيمتش يبادره قائلًا:

– ها أنا ذا! سعدت مساء يا عزيزي! لا بد أن زياراتي قد أضجرتك، هيه!

فيجيب الطبيب:

– بالعكس.. إني لمسرور.. أنا دائمًا أسر لرؤيتك.

ثم يجلس الصديقان على الأريكة في غرفة المكتب فترة صامتين يدخنان.. وينادي أندريه يفيمتش:

– داريوشكا.. ماذا عن البيرة!

يشربان الزجاجة الأولى صامتين، الطبيب غارق في أفكاره، وميخائيل أفريانتش مرح حيوي المظهر كأنه يستعد لقول شيء ما شيق جدًا، ودائمًا

يبدأ الطبيب الحديث، فيقول ببطء، وصوت منخفض، دون أن ينظر في عيني محدثه (فهو لا ينظر أبدًا في العينين):

- يا له من أمر محزن، محزن جدًّا يا ميخائيل أفريانتش المحترم، إنه لا يوجد بتاتًا في مدينتنا أحد يجيد ويحب الحوار الشيق الذكي. إننا بذلك نفقد الكثير، حتى المثقفون لا يسمون على التهريج، إني أؤكد لك أن مستوى نضجهم الفكري لا يرتفع عن مستوى الطبقات السفلى.

- صحيح تمامًا. إني أوافقك.

فيواصل الطبيب بصوت خفيض متمهلًا:

- إنك تعلم بنفسك أن كل شيء في هذا العالم منحل تافه إلا النتاج الروحي السامي للعقل الإنساني. فالعقل يضع حدًّا فاصلًا بين الحيوان والإنسان بل ويرمز إلى ألوهية الأخير، ويعتبر إلى حد ما بديلًا للحياة الأبدية التي لا نتمتع بها. ونتيجة لذلك يكون العقل هو المصدر الوحيد المتاح للتمتع بالحياة، وحولنا لا وجود للعقل، لا نراه ولا نسمع عنه شيئًا- ولذلك نحن محرومون من هذه المتعة، صحيح نحن نملك الكتب ولكنها لا تغني عن الحوار، وإذا سمحت لي أن أستعير تشبيهًا ليس دقيقًا تمامًا فإني أقول إن الكتب هي النوتة الموسيقية أما الحوار فهو الغناء.

- هذا صحيح تمامًا.

ويخيم الصمت، وتخرج داريوشكا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن غبي، تضع يدها على خدها، وتقف بالباب لتنصت إلى الحديث.

ويتنهد ميخائيل أفريانتش قائلًا:

- إيه.. إنك تطلب الكثير من عقل هذا الجيل!

ثم يبدأ في الكلام عن الحياة في الماضي وكيف كانت هذه الحياة شيقة ومرحة، وكيف كان المثقفون في روسيا أذكياء، يقدسون مفاهيم الشرف والصداقة، ويقرضون النقود بلا إيصالات، ويعتبرون أن التخلي عن مساعدة الرفيق المحتاج أمرًا مخجلًا. وأية رحلات ومغامرات ومشادات! وأي رفاق! وأي نساء! والقوقاز، يا لها من منطقة عجيبة، وقال:

- لقد عرفت هناك امرأة عجيبة- زوجة أحد زملائي الضباط- كانت تضع على كتفيها المعطف الميري وتخرج ليلًا إلى الجبال، وحدها بلا مرافق، يقال إنها كانت تعشق أحد شيوخ القبائل هناك.

وتتنهد داريوشكا متمتمة:

- يا قيصرة السماوات! يا أمنا...

ويستمر ميخائيل أفريانتش:

- كم شربنا وكم أكلنا وكم تناقشنا! كم كنا ليبراليين!

ويستمع أندريه يفيمتش إلى الحديث ولا يصغي إليه لأنه يفكر في شيء ما، ويشرب البيرة ببطء، بجرعات صغيرة، ثم يقاطع ميخائيل أفريانتش فجأة بقوله:

- كثيرًا ما أرى في الحلم أنني في حوار مع ناس أذكياء. لقد أعطاني والدي تعليمًا ممتازًا، ولكنه- متأثرًا بأفكار الستينيات- اضطرني لدخول كلية الطب، ويخيل إليّ أنني لو لم أمتثل بأمره لكنت الآن في قلب الحياة

الفكرية، بالطبع ليس العقل شيئًا أبديًّا بل إنه وقتي ولكنني أقدسه. إن الحياة مصيدة غبية، عندما يصل الإنسان المفكر إلى الرجولة والمعرفة الناضجة فإنه يشعر كأنه وقع في مصيدة لا مخرج منها، فعلًا يجد الإنسان نفسه- بدون إرادته- مشدودًا بظروف وصدف معينة من العدم إلى الحياة.. لأي هدف؟ يريد الإنسان أن يعرف معنى وهدف وجوده ولكن ما من مجيب، وإذا أجابوا فبخلط غير مفهوم. إنه يطرق الأبواب ولكنها لا تنفتح، ثم يأتي الموت أيضًا دون إرادته. وفي السجن ترتفع روح المسجونين المعنوية عندما يتجمعون معًا وهكذا في الحياة لا يحس المرء بهذه المصيدة إذا كان من ذلك النوع من الناس الذين يحبون أن يشغلوا وقتهم في تبادل الأفكار الحرة الأبية، وهذا ما أعنيه بقولي إن العقل هو اللذة التي لا بديل لها.

- هذا صحيح تمامًا.

ويواصل أندريه يفيمتش- دون أن ينظر في العينين- حديثه الهادئ الذي تتخلله لحظات الصمت، عن الناس الأذكياء والحوار معهم، أما ميخائيل أفريانتش فينصت بانتباه ويوافق بجملته: «صحيح تمامًا».

ويسأل رجل البريد فجأة:

- ألا تؤمن بأبدية الروح؟

- لا يا حضرة المحترم ميخائيل أفريانتش ولا أجد أسبابًا تدعوني لهذا الإيمان.

- حقيقة أنا أيضًا أشك في ذلك، ولكني أشعر كما لو أني لن أموت أبدًا.. وأحيانًا أقول لنفسي: «إيه أيها العجوز ها قد حان أجلك» ولكني أشعر بصوت خافت- من أعماق نفسي- يقول: «لا لن تموت»!.

وبعد التاسعة بقليل ينهض ميخائيل أفريانتش.. وفي المدخل أثناء ارتدائه المعطف الثقيل يتنهد قائلًا:

- يا للمقادير التي حكمت علينا بالنفي إلى هذا المكان النائي.. وأفظع ما في الأمر هو أننا سنموت هنا. إيه!

- ٧ -

وبعد ما يرافق أندريه يفيمتش صاحبه إلى الباب، يعود إلى مكتبه ليواصل القراءة ولا يعكر أي صوت صفو المساء أو الليل ويكاد الزمن أن يتوقف ويسكن مع الطبيب المنكب على كتابه وكأنه لا يوجد شيء في العالم كله إلا هذا الكتاب وذلك المصباح ذو الزجاجة الزرقاء. وبمرور الوقت تختفي الفظاظة والجلافة من وجه الطبيب وتحل محلها ابتسامة رضا وفرح أمام خلجات العقل الإنساني، وتدور في رأسه مختلف الأفكار، أوه لم لا يتمتع الإنسان بالحياة الأبدية؟ لِمَ وجدت مراكز الإحساس والتفكير في مخ الإنسان؟ ولِمَ وجدت حاسة النظر والقدرة على التعبير، لم وجد الشعور، لم وجدت العبقرية إذا كان مقدرًا لكل هذا في نهاية المطاف أن يدفن في الأرض ثم يبرد مع القشرة الأرضية ويدور لملايين السنين مع الكرة الأرضية حول الشمس بلا معنى أو هدف؟ فلا داعي لأن يؤتى بالإنسان من العدم ليبرد ثم ليدور مع الأرض، هذا الإنسان الذي يتمتع بعقل سام شبه إلهي، يؤتى به ليحول إلى طين، إن ذلك أشبه بنكتة.

المادة لا تفنى ولا تستحدث. لكن من الجبن أن يرضى الإنسان بهذه الأبدية الحقيرة. إن هذه العمليات الطبيعية العفوية لأقل مرتبة حتى من الغباء الإنساني لأن الغباء يحتوي على معرفة وإرادة أما تلك العمليات فلا

تحتوي على شيء. إن الجبان فقط- الذي يفوق خوفه من الموت اعتزازه بنفسه- هو الذي يستطيع أن يهدئ من روع نفسه بأن جسده سيظل يحيا في نبتة أو حجر أو ضفدع.. إن الإنسان إذا اعتبر أنه أبدي لمجرد أن جسده كمادة لا يفنى مثله كمثل من يتوقع مستقبلًا رائعًا لصندوق كمان جيد بعد أن يتحطم هذا الكمان.

وكلما تدق الساعة يستريح أندريه يفيمتش بجسده على ظهر الكرسي ويغمض عينيه ليفكر قليلًا، ودون قصد وتحت تأثير الأفكار الجيدة التي قرأها يلقي نظرة على ماضيه وحاضره، الماضي مقرف لا داعي لتذكره والحاضر كالماضي. فهو يعلم أنه الآن وبينما تدور أفكاره مع الكرة الأرضية- التي بردت قشرتها- حول الشمس، يوجد في المستشفى الكبير بجوار مسكنه ناس يتعذبون من المرض والقذارة، ومن المحتمل أن أحدهم في هذه اللحظة لا يستطيع النوم بل يناضل ضد الحشرات، أو أن أحدهم يتأوه متألمًا من الرباط الضيق حول جرحه، أو أن بعض المرضى يلعبون الورق ويحتسون الفودكا مع الممرضات. في العام الواحد يخدع مائة وعشرين ألف إنسان. إن المستشفى كما كانت منذ عشرين عامًا لا زالت مليئة بالسرقات والمؤامرات الحقيرة والإشاعات والخواطر والوساطة والخداع الفظ، إنها لا زالت مؤسسة لا أخلاقية ومضرة بالصحة العامة. إنه يعلم أن نيكيتا يضرب المرضى في العنبر رقم ٦ وأن موسيكا يتجول في المدينة يوميًا ليتسول.

وكذلك فإنه يعلم جيدًا أن علم الطب قد تطور تطورًا مذهلًا في الخمس والعشرين سنة الأخيرة، لقد كان يظن إبان دراسته في الجامعة أن الطب

سيؤول إلى نفس النهاية التي مني بها علم السحر والميتافيزيقا، أما الآن فإن نفسه تمتلئ بالعجب والفرح عندما يقرأ ليلًا عن تطور الطب، فعلًا يا له من تطور غير متوقع، يا لها من ثورة! بفضل مضادات التلوث أصبح من الممكن إجراء عمليات صعبة لدرجة أن بيراجوف[1] العظيم كان يعتبرها مستحيلة من حيث المبدأ، لقد أصبح في استطاعة الأطباء المتوسطي الخبرة أن يقوموا بعملية بتر الساق عند المفصل بنسبة نجاح تسعة وتسعين في المائة، أما مرض تحجر الأنسجة فقد أصبح من الأشياء البسيطة لدرجة أن أحدًا لا يكلف نفسه عناء الكتابة عنه في المجلات العلمية، وصار من الممكن شفاء مرض الزهري شفاء تامًا. ونظرية الوراثة، ونظرية التنويم المغناطيسي، واكتشافات باستير وكوخ، وعلم التعقيم والتطهير، والطب النفسي، وطرق تصنيف الأمراض والكشف عنها وعلاجها. يا للتطور المذهل! فمثلًا، لا يعالج المجانين الآن بصب الماء البارد على رؤوسهم أو بإلباسهم «القميص»، بل يضعونهم في مصحات محترمة ويسمحون لهم بالاشتراك في الحفلات ومشاهدة المسرحيات الخاصة، ويعلم أندريه يفيمتش جيدًا أن شيئًا وضيعًا كالعنبر رقم ٦ لا يمكن أن يتواجد في ظل آراء ووجهات نظر أواخر القرن التاسع عشر إلا في مكان ناءٍ على بعد مائتين فرسخ من خط السكة الحديدية، في تلك المدينة التي يعتقد عمدتها وأهلها أنصاف المتعلمين أن الطبيب كاهن لا بد من الثقة به ثقة عمياء حتى لو صب في حلق المريض قصديرًا مصهورًا، أما لو كان ذلك موجودًا في أي مكان آخر لحطم الناس والصحافة حصن الباستيل الصغير هذا.

---

(١) بيراجوف عالم طب روسي مشهور عاش في القرن التاسع عشر. (المترجم)

ويفتح أندريه يفيمتش عينيه ويتساءل: «وما بعد ذلك؟ وما النتيجة؟ اكتشفت مضادات التلوث، وجاء باستير وكوخ باختراعاتهما، ولكن جوهر الموضوع لم يتغير، نسبة المرض ومعدل الوفاة لم يتغيرا، صحيح يسمح للمجانين بالاشتراك في الحفلات ومشاهدة المسرحيات ولكنهم لا زالوا محبوسين في عنابرهم، إذن فكل هذا تخريف، وفي الواقع لا فرق بين أعظم مستشفى في ڤيينا وبين مستشفاي.

ولكن يداخله شعور بالأسى، وإحساس يشبه الحسد مما يجعله قلقًا. يبدو أن ذلك نتيجة للإجهاد. ويلقي برأسه الثقيل على الكتاب ويضع يده تحت خده ويواصل التفكير «إنني في وظيفتي هذه أقوم بعمل مضر، وأحصل على راتبي ممن أخدعهم، إذن فأنا غير شريف، ولكن أنا في واقع الأمر لا شيء، أنا فقط جزء من الفظاظة الاجتماعية الحتمية، فإن كل الموظفين يقومون بأعمال غير مفيدة ويحصلون على رواتبهم دون وجه حق... إذن أنا لست مذنبًا في أنني غير شريف، بل الذنب ذنب العصر... فلو ولدت بعد مائتي عام من الآن لكنت إنسانًا آخر».

وعندما تدق الساعة الثالثة بعد منتصف الليل يطفئ المصباح ويتوجه لغرفة النوم وليس به أي رغبة في النوم.

- ٨ -

منذ عامين قرر مجلس المحافظة في نوبة كرم أن يساعد المدينة في تدعيم الخدمات الطبية فقرر منحها ثلاثمائة روبل سنويًا وذلك لحين تشييد مستشفى جديد تابع للمحافظة، فعين طبيب جديد لمساعدة أندريه يفيمتش هو يفجيني فيودرتش خوبوتوف. وهو شاب لم يبلغ الثلاثين بعد، طويل، أسمر، ذو وجه عريض وعينين صغيرتين، جاء إلى المدينة مفلسًا، يحمل حقيبة ضخمة، وبرفقته امرأة شابة غير جميلة تحمل طفلًا رضيعًا، وقال إنها طاهيته. ويضع يفجيني فيودرتش كابًا على رأسه وينتعل حذاء برقبة، وفي الشتاء يرتدي معطفًا قصيرًا. وسريعًا ما تفاهم مع كبير الممرضين سرجيي سرجيتش ومع أمين المخزن، وأطلق على بقية الموظفين- لسبب غير مفهوم- اسم «الأرستقراطيون» وصار يتجنبهم. وكان مسكنه يحتوي على كتاب واحد فقط هو «أحدث روشتات مصحة ڤيينا عن سنة ١٨٨١» وكان يحمل معه دائمًا هذا الكتاب في زياراته للمرضى، ومساء كان يلعب البلياردو في النادي ولم يكن يلعب الورق، وكان يحب أن يستعمل في حديثه تعبيرات ملتوية غريبة.

كان يعمل يومين في الأسبوع حيث يمر على العنابر ويستقبل المرضى في العيادة الخارجية ويضيق ذرعًا من عدم وجود مضادات التلوث وعدم وجود كاسات الهواء ولكنه لا يغير شيئًا من النظام الحالي حتى لا يحرج أندريه يفيمتش، وهو يعتبر أن زميله خبيث ويشك في أن لديه دخلًا كبيرًا ويحسده سرًّا. ولا يوجد عنده مانع في أن يحل محله.

- ٩ -

في إحدى أمسيات الربيع في أواخر مارس، بعد ذوبان الجليد، والعصافير تزقزق في حديقة المستشفى، خرج أندريه يفيمتش ليوصل صاحبه رجل البريد، وفي هذه اللحظة كان موسيكا عائدًا من رحلته اليومية عاري الرأس منتعلًا حذاء المطر على قدميه العاريتين، وفي يده مخلاة تحتوي على ما شحذه، واستوقف الطبيب وقال له منتفضًا من البرد مبتسمًا:

- اعطني كوبيكا!

فأعطاه أندريه يفيمتش- الذي لا يستطيع أن يرفض أبدًا- قطعة من ذات العشرة كوبيكات.

ونظر الطبيب إلى ساقي موسيكا العجفاوين العاريتين وفكر في نفسه «هذا ليس بحسن، فالجو بارد رطب».

وبشعور يشبه العطف والقرف تبعه الطبيب إلى المبنى الصغير ناظرًا إلى صلعته تارة، وإلى سيقانه تارة أخرى، ولما رأى نيكيتا الطبيب داخلًا نهض سريعًا من على كومة المخلفات، وبادره الطبيب قائلًا بلين:

- نعمت مساء يا نيكيتا، ماذا لو صرفنا لهذا المريض حذاء جديدًا، وإلا سيصاب بنزلة برد.

- أمر سيادتكم، سأبلغ الأمر إلى أمين المخزن.

- لو سمحت، سله باسمي، قل له إني أرجوه.

وفي هذه الأثناء كان باب العنبر مفتوحًا وكان إيفان ديمترتش راقدًا على سريره مرتكزًا على كوعيه، رافعًا رأسه يتنصت إلى الصوت الغريب بقلق، وفجأة تعرف على الطبيب، فانتفض كل جسده وجحظت عيناه، وقفز إلى منتصف العنبر وصرخ:

- جاء الدكتور.

ثم قهقه وأضاف:

- أخيرًا! أهنئكم أيها السادة، إن الدكتور سيشرفنا بزيارته.. أيها الثعبان الملعون!

وفي ثورة غضب جنوني صار يضرب الأرض بقدميه صارخًا:

- لا بد من قتل هذا الثعبان! لا، إن قتله قليل! لا بد من إغراقه في مكان مهجور!

فلما سمع أندريه يفيمتش هذا الصراخ أطل برأسه داخل العنبر وسأل بلين:

- بأي جرم؟

فصرخ إيفان ديمترتش:

- بأي جرم؟!

وتقدم إلى الطبيب بشكل مهدد، ململمًا معطفه بأصابع مرتجفة، متخذًا بفمه وضع من يرغب في البصق وصرخ:

- بأي جرم؟ يا لص! يا مخادع! يا قاتل!

فأجاب أندريه يفيمتش مبتسمًا كالمذنب:

- أرجوك. هدئ من روعك. إنني أؤكد لك أني لم أسرق أبدًا، كما يبدو أنك تضخم جدًا في بقية التهم. أراك غاضبًا عليّ. أرجو أن تقول لي بهدوء وبرود. لماذا تغضب مني؟

- ولماذا تحبسونني هنا؟

- لأنك مريض.

- أجل. أنا مريض، ولكن هناك عشرات بل مئات من المجانين يتجولون طلقاء، ذلك لأن جهلكم لا يجعلكم تستطيعون تمييزهم عن الأصحاء. فلماذا أسجن أنا وهؤلاء المساكين نيابة عن كل المجانين، مثل كباش الفداء؟ أنت وكبير الممرضين وأمين المخزن وكل أنذال المستشفى من وجهة النظر الأخلاقية أقل من أي واحد منا بمراحل، إذن لماذا نسجن نحن ولا تسجنون أنتم؟ أين المنطق؟

- لا المقارنة الأخلاقية ولا المنطق يلعبان أي دور في هذا الموضوع. بل إن كل شيء وليد الصدفة. فمن يمسك به يسجن ومن لم يمسك به يعش حرًا طليقًا. هذا هو كل شيء فلا علاقة بين كوني طبيبًا وكونك مريضًا وبين الأخلاقيات والمنطق ولكن العملية كلها صدفة بحتة.

فأجاب إيفان ديمترتش بغضب:

- أنا لا أفهم هذا الخلط.

وجلس على سريره.

واستغل موسيكا فرصة أن نيكيتا خجل أن يفتشه في حضور الطبيب فرص على السرير كسرات الخبز وقصاصات الورق وقطع العظم التي كانت في مخلاته، وأخذ يتمتم بسرعة وتنغيم بالعبرية. كان يتصور أنه فتح حانوتًا.

وقال إيفان ديمترتش:

- أخرجني من هنا. أرجوك.

ثم تحشرج صوته. فقال الطبيب:

- لا أستطيع.

- لكن لماذا؟ لماذا؟

- لأني لا أملك هذا الحق، فلتفكر بنفسك. أي فائدة يمكن أن تجنيها من ذلك؟

«إنك إذا خرجت سيمسك بك الناس أو رجال الشرطة ويعيدونك».

- أجل. أجل هذا صحيح.

ومسح جبينه بيده وأضاف:

- هذا فظيع! ولكن ما العمل؟ ما العمل؟

أعجب أندريه يفيمتش بصوت إيفان ديمترتش وبوجهه الذكي، فأراد أن يطيب خاطره وأن يهدئ من روعه فجلس إلى جواره على السرير وقال:

- أنت تتساءل: ما العمل؟ إن أفضل شيء في وضعك هو أن تهرب من هنا، ولكن للأسف دون فائدة، فسيمسكون بك. إنك لا تستطيع أن تهزم المجتمع عندما يحمي نفسه من المجرمين والمجانين وكل من يسببون له

المشاكل، وبذلك لا يبقى لك إلا حل واحد هو أن تقنع نفسك بأن وجودك هنا ضروري.

- إن أحدًا لا يحتاج إلى هذه الضرورة.

- بما أن السجون ومستشفيات المجانين موجودة فلا بد لأحد ما أن يشغلها، إن لم تكن أنت فأنا، وإن لم أكن أنا فغيري. فلننتظر إلى أن يجيء الوقت الذي لن تكون فيه سجون ولا مستشفيات مجانين وعندئذ لن يكون هناك قضبان ولا «قمصان» مجانين، وإن عاجلًا أو آجلًا سيجيء هذا الوقت.

فابتسم إيفان ديمترتش وقال ناظرًا شزرًا:

- أتهزأ؟ لا دخل لهؤلاء السادة أمثالك وأمثال نيكيتا بهذا المستقبل، ولكني أؤكد لك يا سيدي المحترم أن المستقبل السعيد سيجيء، من الجائز أن تعبيري غير سام، ولك أن تضحك إذا شئت ولكن الفجر الجديد سيبزغ، وسيرتفع علم الحق، وستكون الأعياد في كل مكان، لن أعيش لأرى هذا الزمن ولكن الأحفاد سيرونه، إني أحييهم وأفرح لهم بكل وجداني! إلى الأمام! وليساعدكم الله يا أصدقائي!

ونهض إيفان ديمترتش ولمعت عيناه ومد يديه إلى النافذة وواصل بفرح طاغ:

- إني أباركم من وراء هذه القضبان! فليعش الصدق! إني فرح!

وخيل لأندريه يفيمتش أن حركات إيفان ديمترتش مسرحية، وفي نفس الوقت أعجب بها، ورد عليه قائلًا:

- إني لا أجد أي سبب للفرح، صحيح سيجيء الوقت الذي تختفي

فيه السجون ومستشفيات المجانين، وسيرتفع- كما قلت- علم الحق والصدق، ولكن مضمون الأشياء لن يتغير وستظل قوانين الطبيعة كما هي، والإنسان سيظل يمرض ويهرم ويموت كما هو الحال الآن، ومهما أضاءت الأنوار حياتك ففي النهاية ستوضع في تابوت ويقذف بك في حفرة.

- والأبدية؟

- إيه.. لا داعي!

- أنت لا تؤمن- أما أنا فمؤمن. لقد قيل على لسان أحد أبطال ديستوفسكي أو فولتير- لا أذكر- إنه لو لم يكن هناك إله لاخترعه الناس، وأنا أؤمن بعمق أنه إن لم تكن هناك حياة أبدية فإن العقل الإنساني سيخترعها إن عاجلًا أو آجلًا.

فابتسم أندريه يفيمتش معجبًا وقال:

- من حسن حظك أنك تؤمن، إن من يملك هذا الإيمان يستطيع أن يعيش حتى لو كان مقيدًا أو مصلوبًا على جدار. هل نلت قسطًا من التعليم؟

- أجل. كنت أدرس في الجامعة ولكن لم أكمل دراستي بها.

- إنك إنسان مفكر ومتمعن، وأيًّا كانت الظروف فإنك تستطيع أن تجد الهدوء داخل ذاتك، إن التفكير الحر العميق والتفهم الدقيق لأحداث العالم الغبية لأسمى متعة للإنسان. وأنت تستطيع الحصول عليها حتى إذا كنت مقيدًا وراء ثلاثة جدران. لقد أمضى ديوجينوس[1] حياته في برميل ولكنه كان أسعد من كل قياصرة العالم.

(١) ديوجينوس- فيلسوف يوناني (٤٠٤ - ٣٢٣ ق.م)، تجنب العالم وقضى الجزء الأكبر من حياته في برميل. ويقال إنه كان يحمل مشعلًا بالنهار ليبحث عن إنسان يستحق ما تعنيه هذه الكلمة- المترجم.

فقال إيفان ديمترتش غاضبًا:

- لقد كان ديوجينوس هذا حمارًا.

ثم حنق فجأة ونهض من على سريره وأضاف:

- لماذا تكلمني عن ديوجينوس وعن تمعن غير ذي معنى؟ إني أحب الحياة، أحبها بعمق! صحيح إنني أقاسي من تصور أنني مطارد وأحس دائمًا بخوف مضن، ولكنني أشعر أحيانًا بعطش قوي للحياة وعندئذ أخاف من أن أجن، إن لي رغبة فظيعة في الحياة، رغبة فظيعة!

وبدأ السير جيئة وذهابًا بطول العنبر وقال مخفضًا صوته:

- أحيانًا أرى الأشباح.. فأتصور أناسًا يجيئون إليّ وأسمع أصواتًا وموسيقى، ويهيأ لي أنني أتجول في الغابات أو على شاطئ البحر، وعندئذ أتوق بكل وجداني إلى مشاكل الحياة ومشاغلها.. أخبرني من فضلك.. ماذا هناك من جديد؟ ماذا هناك؟

- هل تسأل عن المدينة أو عمومًا؟

- أولًا حدثني عن المدينة ثم عن كل شيء.

- حسن، في المدينة ضجر لا نهائي. لا تستطيع أن تجد إنسانًا يمكنك التحدث معه.. لا جديد، آه من زمن قريب جاء طبيب جديد. خوبوتوف.

- أجل أعلم، ماذا عنه؟ قفل؟

- أجل، إنسان غير مثقف. شيء غريب.. إن الحركة الثقافية والفكرية في مدننا الكبرى تتطور، ولكنهم دائمًا يرسلون إلينا أناسًا قتلهم أفضل. يا لها من مدينة بائسة!

- أجل مدينة بائسة!

وتنهد إيفان ديمترتش وضحك ثم سأل:

- وعمومًا. كيف الحال؟ هل هناك جديد في الصحف والمجلات؟

كان الظلام قد خيم في العنبر، نهض الطبيب وصار يتحدث واقفًا عما يكتب في الخارج، وعن التطورات والاتجاهات الفكرية في روسيا. وكان إيفان ديمترتش يستمع بانتباه ويستفسر من حين لآخر، وفجأة أمسك رأسه بكلتا يديه كمن تذكر شيئًا فظيعًا. ورقد على سريره معطيًا ظهره للطبيب الذي سأله:

- ماذا حدث؟

فرد عليه إيفان ديمترتش بفظاظة:

- لن أقول لك كلمة أخرى! اتركني!

- ولكن لماذا؟

- قلت لك اتركني! يا للشيطان!

فهز أندريه يفيمتش كتفه متعجبًا وخرج، وفي المدخل قال:

- ماذا لو نظف المكان يا نيكيتا.. فالرائحة ثقيلة إلى حد فظيع!

- أوامر سيادتكم!

وأخذ الطبيب يفكر متجهًا إلى مسكنه «يا له من شاب لطيف! على ما أظن أنه أول من يمكن التحدث معهم ممن قابلتهم طوال مدة خدمتي هنا. إنه يجيد المناقشة والحوار، كما أنه يهتم بما يجدر الاهتمام به».

وأخذ يفكر في إيفان ديمترتش طوال فترة القراءة حتى توجه للنوم، وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي تذكر أنه بالأمس تعرف إلى رجل ذكي شيق، وقرر أن يكرر زيارته له في أقرب فرصة.

- ١٠ -

وجد الطبيب إيفان ديمترتش راقدًا تمامًا كما تركه بالأمس، رأسه بين يديه، ثانيًا ركبتيه، ووجهه شديد الشحوب، فبادره الطبيب قائلًا:

- سعدت مساء يا صديقي، هل أنت مستيقظ؟

فأجاب إيفان ديمترتش ووجهه على الوسادة:

- أولًا: أنا لست صديقك، ثانيًا: إن مجهوداتك ستذهب سدى، فلن تحصل مني على كلمة واحدة.

فخجل أندريه يفيمتش وقال:

- غريبة.. لقد كنا نتحدث بالأمس في منتهى التفاهم وفجأة ولسبب لم أفهمه قطعت الحديث.. قد أكون أسأت التعبير أو قد تكون إحدى أفكاري لا تتوافق مع معتقداتك..

- أتظنني سأصدقك!

ورفع إيفان ديمترتش وجهه ونظر إلى الطبيب مستهزئًا وقلقًا، وكانت عيناه محمرتين، وأضاف:

- تستطيع أن تتجسس أو تستجوب في مكان آخر، أما هنا فلن تتوصل لشيء، لقد اكتشفت سبب حضورك إلى هنا منذ الأمس.

فابتسم الطبيب قائلًا:

- يا له من خيال! إذن أنت تعتبرني جاسوسًا.

- أجل.. جاسوس أو طبيب مكلف باستجوابي، كلتا الحالتين سواء.

- اعذرني، يا لك من إنسان.. غريب!

وجلس الطبيب على مقعد بجوار السرير وهز رأسه معاتبًا وقال:

- لنفرض إنك على حق، لنفرض أني أريد الإيقاع بك وتسليمك للشرطة. ثم يقبضون عليك ويحاكمونك، فهل المحكمة أو السجن أسوأ لك من هنا؟ وإذا سجنت أو نفيت إلى سيبيريا فهل هذا أسوأ من الحياة في هذا المكان؟ لا أظن.. لم إذن تخاف؟

ويبدو أن هذه الكلمات أثرت في إيفان ديمترتش فجلس بهدوء.

وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر - ذلك الوقت الذي يسير فيه أندريه يفيمتش في أرجاء مسكنه ومن وقت لآخر تسأله داريوشكا: «ألم يحن وقت البيرة بعد؟» وكان الجو بالخارج هادئًا صحوًا. وقال الطبيب:

- لقد خرجت بعد الغداء لأتجول، ففكرت أن أزورك، الدنيا ربيع.

فسأل إيفان ديمترتش:

- أي شهر الآن؟ مارس؟

- نعم، أواخر مارس.

- هل الأرض ما زالت موحلة؟

- ليس تمامًا. بل إن طرق الحديقة قد جفت.

ففرك إيفان ديمترتش عينيه كمن استيقظ من النوم وقال:

– إنه لوقت مناسب لأن يركب المرء عربة ويتوجه بها إلى الضواحي للنزهة، ثم يعود إلى المنزل ليجلس في غرفة مكتب مريحة ودافئة و... ويتعالج عند طبيب محترم من الصداع الدائم... من مدة طويلة لم أذق طعم الحياة الإنسانية، إن الحياة هنا مقرفة! غير محتملة! يا للقرف!

كان إيفان ديمترتش مرهقًا بعد انفعالات الأمس لذا كان يتكلم بلا رغبة وكانت أصابعه ترتجف ويبدو أنه يعاني من صداع حاد، وقال أندريه يفيمتش:

– لا فرق أبدًا بين غرفة مكتب مريحة دافئة وبين هذا العنبر، فالإنسان يجد الهدوء والراحة داخل ذاته لا خارجها.

– كيف هذا؟

– إن الإنسان العادي هو الذي يتوقع الخير والشر من خارج ذاته أي من عربة أو غرفة مكتب مثلًا، أما الإنسان المفكر فيجد كل شيء داخل ذاته.

– اذهب وانشر فلسفتك هذه في اليونان حيث الجو دافئ معبأ برائحة الزهور، أما هنا فالطقس لا يناسبها مع من تحدثت أمس عن ديوجينوس؟ معك؟

– أجل. معي.

– لم يكن ديوجينوس في حاجة إلى غرفة مكتب أو إلى بيت دافئ، فالجو في اليونان حار. فليرقد في البرميل وليأكل البرتقال والزيتون، أما لو كان يعيش في روسيا لجرى بحثًا عن مسكن دافئ في مايو لا في ديسمبر وإلا لتجمد من البرد.

- لا، لست على حق. إن الإنسان يستطيع ألا يشعر بالبرد أو بأي ألم آخر. لقد قال مارك أفريل[1]: «الألم هو تصور حي للألم، فلتستخدم قوة إرادتك لتغيير هذا التصور، ولتتخلص منه، ولتمتنع عن الشكوى، حينئذ سيختفي الألم» وهذا صحيح. إن الفرق بين الحكيم أو الإنسان المفكر المتمعن وبين الإنسان العادي هو أن الأول يحتقر الألم فهو دائمًا راضٍ لا يستنكر شيئًا.

- إذن فأنا معتوه إذ أني أتألم، ولأني غير راض، ولأني أستنكر النذالة.

- لا داعي لكل ذلك، إنك إذا أكثرت في التفكير العميق ستجد أن كل ما هو خارج ذاتك وأن كل ما يضايقك في منتهى التفاهة، يجب عليك أن تهدف دائمًا إلى التعقل فهو الخير الحقيقي.

- التعقل.. الخارج، الداخل.. آسف ولكني لا أفهم ذلك.

ثم نهض ونظر إلى الطبيب بغضب وواصل:

- أنا أعلم فقط.. أنا أعلم أن الله خلقني من دم دافئ وأعصاب. نعم! إن النسيج العضوي لا بد وأن يتجاوب ويتفاعل مع المؤثرات الخارجية، وإني لأتجاوب فإذا شعرت بالألم أصرخ وأبكي، وإذا رأيت النذالة أغضب، وإذا رأيت الوضاعة أحس بالغثيان. وفي رأيي أن ذلك بالذات هو الحياة، وكلما كان الحي أوضع قل إحساسه وقل تجاوبه مع المؤثرات الخارجية، وكلما كان أسمى كان أكثر تأثرًا وكان تجاوبه مع الواقع أسرع، كيف لا تعلم ذلك؟ طبيب ولا تفهم هذه الأشياء البسيطة! وإذا أراد الإنسان أن يحتقر الآلام وأن يكون دائمًا راضيًا مطمئنًا لا بد له أولًا أن يصل لمثل هذه الحالة.

(١) مارك أفريل (١٢١ - ١٨٠) إمبراطور روماني وفيلسوف. المترجم.

وأشار إلى الفلاح السمين على السرير المجاور، وواصل:

- أو لا بد أن يعود نفسه على تحمل الآلام لتلك الدرجة التي يفقد عندها الإحساس بالألم أي بكلمة أخرى أن يكون في حكم الميت. اعذرني أنا لست حكيمًا أو فيلسوفًا ولا أفهم شيئًا في هذا الموضوع.

وأضاف حانقًا:

- أنا لا أستطيع أن أناقش هذا الموضوع.

- بالعكس إن مناقشتك ممتعة.

- لقد كان المشاءون[1]- الذين تدافع عن فلسفتهم- رجالًا عظامًا، ولكن تعاليمهم هذه قد توقفت عن التطور من ألفي عام، ولن تتطور لأنها غير عملية ولا تناسب الحياة، إنها لاقت النجاح- فقط عند أقلية من الناس يقضون حياتهم في تحصيل ومناقشة أية تعاليم.

أما الأغلبية فلا تفهمها. إن تلك التعاليم التي تدعو لعدم الاهتمام بالمال وملذات الحياة، وإلى احتقار الآلام والموت غير مفهومة تمامًا بالنسبة للأغلبية الساحقة ذلك لأن هذه الأغلبية لم تعرف لا المال ولا الملذات، أما أن تحتقر الآلام فهذا يعني أن تحتقر الحياة ذاتها، لأن كيان الإنسان كله يتكون من الإحساس بالجوع والبرد والأحزان والإحساس بخوف هاملت من الموت، فهذه المشاعر هي الحياة ومن الممكن أن يقاسي منها الإنسان وأن يكرهها ولكنه لا يستطيع أن يحتقرها. لذا فإني أكرر: لا مستقبل لهذه التعاليم، وفي نفس الوقت من أول القرن نرى تطور فلسفات النضال والإحساس بالألم والمقدرة على التجاوب مع الواقع..

(١) المشاءون- الفلاسفة اليونانيون أتباع المدرسة المشائية التي أنشأها أرسطو- المترجم.

وفجأة فقد إيفان ديمترتش تسلسل أفكاره فتوقف، وحك جبينه بغضب ثم واصل:

- كنت أريد أن أذكر شيئًا مهمًا ولكن الأمر اختلط عليّ. عما كنت أتكلم؟ آه! إني أقول: لقد باع أحد المشائين نفسه كعبد ليحرر إنسانًا عزيزًا عليه، إذن كما نرى حتى المشاءون يتأثرون بالعوامل الخارجية لأنه من الضروري لكي يقوم الإنسان بعمل سام كإفناء ذاته من أجل الغير أن تهتز وتتعذب روحه، ولو أني لم أنس هنا في السجن كل ما تعلمته لذكرت لك أمثلة أخرى. فلنأخذ مثلًا المسيح؟ لقد كان المسيح يتجاوب مع الأحداث، كان يبكي ويبتسم ويحزن ويغضب بل ويشتاق، وعندما قادوه للصلب لم يكن يبتسم احتقارًا للموت بل صلى للرب في حديقة جستيماني ليقيه كأس المنون. ثم ضحك إيفان ديمترتش وجلس وواصل:

- لنعتبر أن الإنسان يجد الهدوء والراحة في داخل ذاته ولنعتبر أنه من الضروري احتقار الآلام والاحتفاظ بالسكينة، فعلى أي أساس تبشر أنت بهذه الفلسفة؟ أحكيم أنت؟ أفيلسوف أنت؟

- لا أنا ليست بفيلسوف، ولكن على كل إنسان أن ينشر هذه التعاليم لأنها صحيحة.

- ولكني أريد أن أعلم، لماذا تعتبر نفسك عالمًا ببواطن الأمور في موضوع تعقل الحياة واحتقار الآلام؟ هل قاسيت الآلام قبلًا؟ هل عندك فكرة عن العذاب؟ هل مثلًا كانوا يضربونك صغيرًا؟

- لا، لقد كان والداي يحتقران العقاب الجسماني.

- أما أبي فقد كان يضربني بقسوة، لقد كان رجلًا لا يعرف التفاهم،

موظفًا جادًّا بأنف طويل ورقبة صفراء. ولكن دعنا نتحدث عنك. طوال حياتك لم يمسسك أحد بأصبعه، ولم يخفك أو يضربك أحد، وأنت صحيح قوي كالثور، ولقد ترعرعت تحت رعاية والدك وتعلمت على نفقته وبعد ذلك رأسًا حصلت على الوظيفة، وتعيش أكثر من عشرين عامًا في مسكن حكومي مجاني مزود بمدفئة ونور وخادم، ثم إن لك الحق في أن تعمل المدة التي تحلو لك بل تستطيع ألا تفعل شيئًا إطلاقًا. وأنت بطبعك إنسان كسول ضعيف الإرادة لذا فقد رتبت حياتك بحيث لا يقلقك ولا يحركك من مكانك شيء، ولقد تركت العمل كله لكبير الممرضين ولبقية أنذال المستشفى، وظللت أنت في الدفء والهدوء، تجمع النقود وتقرأ الكتب وتتلذذ بالتفكير العميق في الترهات السامية، (وبعد أن نظر إيفان ديمترتش إلى أنف الطبيب الأحمر) كما أنك تعب الخمر، وبكلمة واحدة أنت لم تر الحياة ولم تعرفها بتاتًا، وكل معلوماتك عن الواقع نظرية. أنت تحتقر الآلام ولا تستنكر شيئًا لسبب بسيط: لا معنى لشيء، الداخليات والخارجيات، احتقار الحياة والآلام والموت، التفهم والتعقل، الخير الحقيقي- كل هذا يكون الفلسفة المريحة بالنسبة للكسول الروسي. فإذا رأيت مثلًا فلاحًا يضرب زوجته، لماذا أتدخل؟ فليضربها فأخيرًا سيموتان، ثم إن الضارب لا يحقر المضروب بقدر ما يحقر نفسه، من الغباء واللا أخلاقية أن يسكر الإنسان ولكنه سيموت سواء شرب أم لم يشرب. تأتي امرأة إلى المستشفى لأن أسنانها تؤلمها.. وماذا في هذا؟ إن الألم هو تصور للألم، ثم إنه لا يمكن للإنسان أن يعيش في هذا العالم بلا مرض، وسنموت جميعًا، لذا اذهبي بعيدًا يا امرأة لا تعطليني عن أن أفكر وأشرب الفودكا.

ويسألك شاب: «ما العمل؟ كيف أعيش؟» إذا تلقى غيرك هذا السؤال فإنه قبل أن يجيب يفكر قليلًا، أما عندك فالرد جاهز «التفهم والتعقل والخير الحقيقي». ولكن ما هي هذه الخرافة التي تسميها «الخير الحقيقي» بالطبع لا جواب. إننا هنا مسجونون وراء القضبان نضرب ونعذب ولكن كل هذا عظيم وفي منتهى العقل إذ لا فرق بين هذا العنبر وبين غرفة المكتب الدافئة المريحة. إنها لفلسفة مريحة: لا داعي للقيام بأي عمل والضمير مرتاح، وتشعر بنفسك في منتهى الحكمة.. لا يا سيدي المحترم إنها ليست فلسفة أو أسلوب تفكير أو اتساعًا في النظر، بل إن ذلك لكسل وإفلاس فكري وأحلام غبية.. أجل!

ثم غضب إيفان ديمترتش مرة أخرى وواصل:

- أتحتقر الآلام؟ إنك- في الغالب- ستصرخ بكل صوتك إذا أقفل الباب على أصبعك!

فابتسم أندريه يفيمتش بطيبة وقال:

- وقد لا أصرخ.

- طبعًا! وإذا أصبت بشلل، أو إذا استغل أي سفيه وضعه أو مركزه فأهانك أمام الناس، وكنت تعلم أنه لن يعاقب على ذلك، لرأينا كيف ستستطيع أن تنصح الآخرين بالتعقل والبحث عن الخير الحقيقي!

فضحك أندريه يفيمتش مسرورًا وفرك يديه قائلًا:

- شيء لطيف! إنني مندهش ومسرور من حبك للتعميم، أما الصورة التي رسمتها لي فرائعة، إنني أعترف أن الحوار معك يشعرني بالغبطة. حسنًا لقد أنصت إليك، والآن أرجو أن تنصت إليّ..

- ١١ -

واستمر الحديث ساعة أخرى، ويبدو أنه ترك في نفس أندريه يفيمتش أثرًا عميقًا فأصبح يزور العنبر يوميًا. وكان يتوجه إلى هناك صباحًا وبعد الغداء وكثيرًا ما كانا يواصلان الحديث إلى المساء. وفي مبدأ الأمر كان إيفان ديمترتش يخاف الطبيب ويشك في نواياه بل كان يظهر عدم ميله له، ولكنه بمرور الوقت تعود عليه وغير طريقته الجافة في الحديث فصار يتحدث إليه بلين وتهكم.

وسريعًا ما انتشرت في المستشفى إشاعة بأن الدكتور أندريه يفيمتش أصبح يزور العنبر رقم ٦، ولم يستطع أحد لا كبير الممرضين ولا نيكيتا ولا الممرضات أن يفهم. لِمَ يزور الطبيب العنبر؟ ولِمَ يجلس هناك بالساعات، وعم يتحدث، ولِمَ لا يكتب روشتات للمرضى بالعنبر؟ وكانوا يتعجبون من تصرفاته، وكثيرًا ما كان ميخائيل أفريانتش لا يجد الطبيب في مسكنه ولم يكن ذلك ليحدث أبدًا، كما أن داريوشكا أصبحت في منتهى القلق من أن الطبيب صار يشرب البيرة في أوقات مختلفة بل صار يتأخر أحيانًا عن ميعاد الغداء.

ومرة، في أواخر يونيو توجه الدكتور خوبوتوف إلى أندريه يفيمتش لسبب ما ولم يجده في مسكنه فتوجه إلى الفناء الخارجي ليسأل عنه فأخبروه أنه ذهب إلى المجانين. دخل خوبوتوف إلى المبنى الصغير

وتوقف في مدخله حيث سمع إيفان ديمترتش يقول بغضب:

- لن نتفق أبدًا، ولن تستطيع أن تجعلني أومن بمعتقداتك، فإنك لا تعرف الحياة إطلاقًا، ولم تقاس الآلام بل قضيت حياتك بجوار آلام وجروح الآخرين كدودة العلق، أما أنا فأقاسي الآلام من ميلادي للآن دون انقطاع، لذا فإني أقول بصراحة: أنا أعتبر نفسي أسمى وأكثر علمًا منك من جميع النواحي. إنك لا تستطيع أن تعلمني.

فقال أندريه يفيمتش بصوت خافت وبضيق من أن محدثه لم يفهمه:

- ليس لي غرض بتاتًا في أن أجعلك تؤمن بمعتقداتي، ليس هذا هو المهم، وليس المهم أنك قاسيت الآلام ولم أقاسها أنا، فالعذاب والفرح غير أبديين فلنتركهما. المهم أننا نفكر وأن كلا منا يجد في الآخر إنسانًا قادرًا على التفكير والمناقشة وهذا يجعلنا متضامنين مهما اختلفت وجهات نظرنا. آه لو تعلم يا صديقي كم كرهت الجنون العام عند الناس وعدم صلاحيتهم وغبائهم وكم يسعدني الحوار معك إنك إنسان ذكي وإني لأتلذذ بك.

فوارب خوبوتوف الباب ونظر إلى الداخل فرأى إيفان ديمترتش بطاقيته والدكتور أندريه يفيمتش جالسين متجاورين على السرير، المجنون يحرك قسمات وجهه بشدة وينتفض ويلملم معطفه حول جسده باضطراب، أما الطبيب فيجلس دون حركة، رأسه على صدره، ووجهه أحمر يظهر عليه تعبير العجز والحزن، فهز خوبوتوف كتفيه وابتسم مستهزئًا ونظر إلى نيكيتا الذي هز كتفيه هو الآخر.

وفي اليوم التالي حضر خوبوتوف مع كبير الممرضين إلى المبنى الصغير حيث وقفا في المدخل يسترقان السمع.

وعندما خرجا قال خوبوتوف:

- يبدو أن الجد قد خرف تمامًا.

فتنهد سرجيي سرجيتش قائلًا:

- غفرانك يا رب!

ثم تحاشى في سيره نقرة مليئة بالمياه القذرة حتى لا يتسخ حذاؤه اللامع وأضاف:

- الحقيقة يا يفجيني فيودرتش المحترم إني أتوقع ذلك من زمن!

- ١٢ -

أصبح أندريه يفيمتش يلاحظ أشياء غريبة، فعندما يقابله عمال وممرضات المستشفى ينظرون إليه بتساؤل ثم يتهامسون، وقبلًا عندما كان يقابل ماشا- طفلة أمين المخزن- في حديقة المستشفى كان يمسح على شعرها ويداعبها، أما الآن فإنها تهرب منه عندما تجده يتقدم إليها مبتسمًا، كذلك لم يعد ميخائيل أفريانتش يكرر عندما يستمع إلى الطبيب «صحيح تمامًا» بل صار يتمتم بخجل «أجل.. أجل..» وأصبح ينظر إليه طويلًا وبحزن ولسبب ما صار ينصحه بعدم شرب الفودكا والبيرة، ولكنه كرجل مهذب كان يقدم نصائحه بطريق غير مباشر، فمثلًا يحكي عن أحد الضباط أو عن أحد رجال الدين- ناس طيبون- كانوا يشربون فمرضوا ثم تركوا الشرب فصفوا تمامًا. كما زاره خوبوتوف مرتين أو ثلاث وأخذ ينصحه بترك المشروبات الروحية وأصبح يوصيه- دون إبداء أسباب- بأن يتناول محلول بروميد الصوديوم.

وفي أغسطس تلقى أندريه يفيمتش خطابًا من عمدة المدينة يرجوه فيه الحضور إلى مقر مجلس المدينة لأمر مهم، وعندما ذهب أندريه يفيمتش في الميعاد المحدد وجد هناك قائد وحدة الجيش بالمدينة وناظر مدرسة المدينة وأحد أعضاء مجلس المدينة وخوبوتوف ورجلًا أبيض ممتلئًا

قدموه له كطبيب يقيم ويعمل في مصنع يبعد ثلاثين فرسخًا عن المدينة وكان موجودًا في المدينة بالصدفة.

وبعد أن جلس الجميع حول مائدة الاجتماعات قال عضو مجلس المدينة موجهًا حديثه لأندريه يفيمتش:

- عندما طلب مقدم من يفيجي فيودرتش خوبوتوف يقول فيه إن الصيدلية في مبنى المستشفى الرئيسي صغيرة ويجب نقلها إلى أحد المباني الصغيرة الملحقة بالمستشفى طبعًا لا مانع من نقلها ولكن لا بد من إجراء بعض الإصلاحات في ذلك المبنى.

ففكر أندريه يفيمتش وقال:

- أجل، لا بد من إجراء بعض الإصلاحات وسيكلفنا نقلها مثلًا إلى المبنى الموجود عند الناصية خمسمائة روبل كحد أدنى، وهذه مصروفات غير إنتاجية.

وبعد صمت قليل واصل أندريه يفيمتش بصوت منخفض:

- لقد تشرفت بعرض تقرير عن المستشفى من حوالي عشر سنوات قلت فيه إن المستشفى بوضعه الحالي يعتبر باهظة التكاليف بالنسبة للمدينة، لقد أنشئت في الأربعينيات ولكن ميزانية المدينة عندئذ كانت غيرها الآن، إن المدينة تنفق الكثير على مباني غير ضرورية وعلى وظائف زائدة عن الحاجة وفي رأيي أن المدينة بنفس هذه الميزانية في ظروف أخرى وبطريقة أخرى تستطيع أن تنفق على مستشفيين جيدين.

فقال عضو المجلس بحرارة:

- فلتخلق الظروف الأخرى.

- لقد تشرفت بأن أطالب بتحويل إدارة المستشفى لمجلس المحافظة.

فقال الطبيب الأبيض:

- إذا حولت النقود إلى مجلس المحافظة فإنها تسرق.

ثم ضحك. فوافق عضو مجلس المدينة قائلًا:

- هكذا جرت العادة.

ثم ضحك أيضًا. فرفع أندريه يفيمتش عينيه ببطء وقال بهدوء:

- لا بد أن يتوخى المرء العدل في أحكامه.

وخيم الصمت ثانية، ثم قدموا الشاي، ولمس الضابط يد أندريه يفيمتش عبر المائدة بخجل شديد وقال:

- لقد نسيتنا تمامًا يا دكتور، إنك كالقديس لا تلعب الورق ولا تحب النساء، لذا فإن صحبتنا غير مسلية بالنسبة لك.

ثم بدأ الجميع يتحدثون عن أن الحياة مملة في المدينة بالنسبة للإنسان المحترم.. لا مسرح، لا موسيقى، ومثلًا في حفل النادي الأخير كانت تقف عشرون امرأة في صالة الرقص، ومعهن رجلان فقط فالشباب لا يرقص بل يتجمع حول المقصف للشرب، أو يلعب الورق، وبدأ أندريه يفيمتش يتحدث بهدوء وبطء عن أنه حزين وحزين بعمق من أن أهل المدينة يفقدون طاقاتهم ويشغلون قلوبهم وعقولهم بالخوض في أحوال الناس وبلعب الورق وليس لديهم الرغبة في قضاء الوقت في الأحاديث الذكية الشيقة أو في القراءة أي لا يرغبون في التمتع بالعقل، فالعقل وحده هو

الشيء الشيق الرائع، أما باقي المتع فكلها سطحية ووضيعة.

وكان خوبوتوف ينصت لزميله وفجأة سأله:

- أندريه يفيمتش، ما تاريخ اليوم؟

وبعد أن أجاب أندريه يفيمتش أخذ خوبوتوف والطبيب الأبيض يسألانه- بلهجة الممتحن الغير محنك- الأسئلة التالية: ما اليوم من أيام الأسبوع؟ كم يومًا في العام؟ وهل صحيح ما يقال عن ظهور نبي في العنبر رقم ٦؟

وعندما سمع أندريه يفيمتش السؤال الأخير احمر وجهه وقال:

- هناك مريض ولكنه شاب ذكي شيق الحديث.

ثم انتهت الأسئلة على ذلك.

وعندما كان أندريه يفيمتش يرتدي معطفه في المدخل وضع الضابط يده على كتفه وقال له متنهدًا:

- يجب علينا نحن العجائز أن نستكين للراحة.

ولما خرج أندريه يفيمتش من مقر المجلس أدرك أن ذلك كان «كونسلتو» لاختبار قواه العقلية وتذكر الأسئلة التي وجهت إليه، فاحمر وجهه ولسبب ما ولأول مرة في حياته حزن على حالة الطب وفكر في الطبيبين وأسئلتهما قائلًا في نفسه: «يا إلهي. إنهم من مدة قصيرة فقط درسوا منهج علم النفس وأدوا امتحانه فمن أين هذا الجهل؟ ليست عندهم أي فكرة عن علم النفس».

وأحس بالمهانة والغضب لأول مرة.

وفي نفس اليوم زاره ميخائيل أفريانتش، وبلا تحية تقدم إليه رجل البريد وأمسك بكلتا يديه، وقال له بقلق:

- يا عزيزي، يا صديقي، اثبت لي أنك تثق في إخلاصي وتعتبرني صديقك... يا صديقي!

ودون أن يعطي لأندريه يفيمتش فرصة ليتكلم واصل بتوتر:

- إني أحبك لثقافتك وطيبة نفسك، اسمعني يا صديقي العزيز، إن قوانين العلم تضطر الأطباء أن يخفوا عنك الحقيقة، أما أنا فأقول الحقيقة دون مواراة- كالعسكريين- أنت مريض! اعذرني يا صديقي ولكنها الحقيقة، لقد لاحظ ذلك كل المحيطين بك، ولقد أخبرني الآن الدكتور يفيجين فيودرتش أنه من أجل صحتك لا بد لك من الراحة والاستجمام. ذلك صحيح تمامًا! رائع! في ظرف أيام سأقوم بإجازة وسأسافر لأستنشق هواء جديدًا. أرجو أن تثبت لي أنك صديق ولنسافر معًا، هيا نسافر ونلهو.

- إني أشعر بأنني صحيح تمامًا، وأنا لا أستطيع السفر، فاسمح لي أن أثبت لك صداقتي بطريقة أخرى.

لقد خيل له للوهلة الأولى أن فكرة السفر إلى مكان ما دون أسباب، بلا كتب، ودون داريوشكا، ودون البيرة، هذا السفر الذي سيغير نظام حياته الذي لم يتغير منذ أكثر من عشرين عامًا، فكرة غير معقولة وخرافية، ولكنه تذكر الحديث الذي دار في مجلس المدينة فعاد إليه مزاجه الثقيل الذي قاسى منه عند عودته من المجلس، فتراءت له فكرة مغادرة هذه المدينة التي

يعتبره أهلها مجنونًا فكرة لطيفة فقال:

- وإلى أين نويت على السفر؟

- إلى موسكو، إلى بطرسبرج، إلى وارسو... لقد قضيت أسعد خمس سنوات من عمري في وارسو، يا لها من مدينة رائعة! فلنسافر يا عزيزي.

- ١٣ -

بعد أسبوع طُلب من أندريه يفيمتش أن يخلد للراحة أي أن يقدم استقالته، فلم يحزن، وبعد أسبوع آخر كان يجلس مع ميخائيل أفريانتش في عربة البريد متجهين إلى أقرب محطة سكة حديد، كان الجو باردًا والسماء صحوًا والأفق يطل عليهم من بعد، وقطعا مسافة المائتي فرسخ إلى المحطة في يومين وباتا في الطريق ليلتين وفي محطات البريد كان ميخائيل أفريانتش يغضب عندما يجد أكواب الشاي غير مغسولة جيدًا أو عندما يتأخر العمال في تغيير خيل العربة، وعندئذ كان وجهه يحمر وكل جسده يرتجف ويصرخ «اخرس. لا تناقش!»، وعندما يجلسان في العربة كان رجل البريد يحكي عن رحلاته في القوقاز وفي الإمبراطورية البولندية. كم كانت هناك مغامرات ولقاءات! وكان يتكلم بصوت عال ويفتح عينيه بتعجب كأنه يكذب وكان يتنفس في وجه أندري يفيمتش ويقهقه في أذنه مما ضايق الطبيب وجعله عاجزًا عن التركيز

واقتصادًا للنفقات سافرا في عربة الدرجة الثالثة لغير المدخنين، وكان نصف المسافرين أناسًا محترمين، وسريعًا ما تعرف ميخائيل أفريانتش على كل الركاب وصار ينتقل من مقعد لآخر ويقول بصوت مرتفع إنه لا يجب على المرء أن يسافر على هذه الخطوط المتعبة، وأن الطريق مليء

بالنشالين! أما المتعة الحقيقية فهي السفر على ظهور الخيل تقطع في اليوم الواحد مائة فرسخ وبعدها تشعر بنفسك صحيحًا قويًّا، وأن تجفيف المستنقع هو السبب في قلة المحصول هذا العام، وعمومًا فإن الفوضى مستشرية. كان يتكلم عن كل ذلك بصوت مرتفع وبحدة ولا يعطي الفرصة لأحد أن يشترك في الحديث ولقد أتعبت هذه الثرثرة المتصلة المصحوبة بالقهقهة والحركات التمثيلية أعصاب أندريه يفيمتش الذي صار يفكر بغضب «من منا المجنون؟ أنا الذي لا أحاول أن أقلق راحة الركاب، أم هذا الأناني الذي يظن نفسه أذكى وألطف الجميع، ولذا لا يعطي لأحد فرصة للراحة والهدوء».

وفي موسكو ارتدى ميخائيل أفريانتش حلة عسكرية دون علامات لأي رتبة والسراويل ذات الشرائط الحمراء وكان يسير في الشارع بالمعطف والقبعة العسكرية مما جعل الجنود يحيونه وصار أندريه يفيمتش يفكر أنه لم يبق لهذا الرجل من آثار ومظاهر غناه إلا السيئ، فكان يحب أن يخدمه الآخرون حتى عندما لا تكون هناك أدنى حاجة لذلك، فمثلًا كثيرًا ما كان ينادي على الساقي في المطعم ليشعل له السيجارة متظاهرًا بأنه لا يرى الكبريت الموجود أمامه على المنضدة، ولم يكن يخجل من أن يسير بملابسه الداخلية أمام خادمات الفندق، وكان يتحدث مع كل الخدم حتى كبار السن منهم باحتقار، وعندما يغضب يسبهم بأقبح الألفاظ، وكان أندريه يفيمتش يرى في ذلك مظاهر غنى لكنها مقززة للنفس.

وأول ما فعله ميخائيل أفريانتش في موسكو هو أن قاد صديقه إلى كنيسة إيفرسكي حيث أخذ يصلي بحرارة ويسجد، ويبكي، وعندما انتهى

من الصلاة تنهد وقال:

– مع إني لا أومن إلا أن السكينة تملأ نفسي بعد الصلاة. قبل الأيقونة يا عزيزي!

فشعر أندريه يفيمتش بالخجل وقبل الأيقونة، فمد ميخائيل أفريانتش شفتيه وهز رأسه وتمتم بالصلاة وطفرت الدموع من عينيه ثانية، وبعد ذلك توجها إلى الكرملين حيث زارا معالمه بل ولمسا بعضها، وتمتعا بالمشاهد المشرفة على نهر موسكوفا، كما زارا معبد سباسيتل ومتحف روميانتسفسكي.

وتناولا الغداء في مطعم «تيستوف» حيث أمسك ميخائيل أفريانتش بكشف المأكولات ونظر فيه مليًّا ثم قال للنادل بلهجة من تعود على تناول الطعام في المطاعم المحترمة:

– لنر ما ستطعمنا اليوم يا ملاكي.

- ١٤ -

كان الطبيب يتجول ويأكل ويشرب ولكنه كان يشعر بإحساس واحد: الضيق من ميخائيل أفريانتش، كان يرغب في أن يستريح منه ومن صحبته، ويود لو يختبئ منه. أما الآخر فكان يعتبر أن واجبه مرافقة الطبيب باستمرار ليمنحه أكبر قدر من متع التنزه واللهو، وأما في الفندق فكان يرفه عنه بالحديث، وتحمل أندريه يفيمتش هذا الوضع يومين ولكن في اليوم الثالث أخبر صديقه بأنه مريض ويرغب في أن يستريح اليوم بأكمله في الفندق. فقال الصديق إنه سيبقى أيضًا. طبعًا لا بد من الراحة وإلا سيفقد المرء قدميه من كثرة التنزه!

رقد أندريه يفيمتش على الأريكة ووجهه للمسند، وكز على أسنانه وصار يسمع صديقه الذي كان يحدثه بحرارة عن أن فرنسا إن عاجلًا أو آجلًا ستهزم ألمانيا، وأن موسكو مليئة بالنشالين، وأنه من الصعب أن تحكم بمجرد النظر إن كان الحصان سليمًا.

فصفرت أذنا الطبيب وأسرعت نبضاته ولكنه لم يستطع- كإنسان مهذب- أن يطلب من صديقه أن يصمت، ولحسن الحظ مل ميخائيل أفريانتش الجلوس في الغرفة فخرج بعد الغداء للنزهة.

وشعر أندريه يفيمتش بالراحة التامة عندما صار وحده. يا لها من راحة عندما يرقد الإنسان على الأريكة دون أدنى حركة شاعرًا أنه وحيد بالغرفة! إن السعادة الحقيقية مستحيلة بغير الوحدة. لقد عصى إبليس ربه لأنه- إبليس- أراد الوحدة التي لا يتمتع بها بقية الملائكة، وود أندريه يفيمتش أن يفكر فيما رأى وسمع في الأيام الأخيرة ولكن ميخائيل أفريانتش لم يغادر مخيلته، وأخذ يفكر بضيق «الغريب أنه قام بإجازته ورافقني بشعور من الصداقة والتضحية،ولكن لا يوجد شيء أسوأ من وصاية الصديق. إنه يظهر كإنسان طيب مخلص مرح إلا إنه ممل، ممل لدرجة غير محتملة. وكثيرًا ما تقابل نوعًا من الناس الذين يقولون كلامًا ذكيًا طيبًا ولكن يشعر المرء بأنهم أغبياء».

وصار أندريه يفيمتش يدعي المرض في الأيام التالية فكان يرقد على الأريكة ووجهه للمسند يتعذب إذا رفه عنه صديقه بالحديث، ويستريح إذا غاب، لقد كان غاضبًا من نفسه لأنه وافق على السفر، وغاضبًا من صديقه لأن الأخير صار بمرور الوقت أكثر ثرثرة وأقل تهذيبًا ولم يعد يتحدث في موضوعات جادة سامية.

وأخذ أندريه يفيمتش يفكر غاضبًا من أن التفاهات أصبحت تشغل باله «ها هو العالم الخارجي يؤثر عليّ كما كان إيفان ديمترتش يقول. لا كل هذا غير ذي بال... فعندما سأعود إلى منزلي سيعود كل شيء كما كان».

وفي بطرسبرج تكرر نفس الوضع. قضى الطبيب أيامه في غرفته بالفندق راقدًا على الأريكة وينهض فقط لشرب البيرة.

وكان ميخائيل أفريانتش يلح عليه باستمرار أن يسرعا بالسفر إلى وارسو، فيقول له أندريه يفيمتش بصوت كله رجاء:

- يا عزيزي، لماذا أسافر أنا؟ فلتسافر وحدك، واسمح لي بالعودة. أرجوك!

ولكن ميخائيل أفريانتش كان يعارض قائلًا:

- لا يمكن بأي حال من الأحوال. إنها مدينة رائعة. لقد قضيت بها أسعد خمس سنوات من عمري!

ولم يجد أندريه يفيمتش في نفسه قوة الإرادة الكافية للرفض. فسافر معه ممزق القلب وهناك لم يخرج من غرفته بتاتًا. فكان يرقد على الأريكة حانقًا على نفسه وعلى صديقه و على الخدم الذين كانوا مصممين على عدم فهم الروسية. أما ميخائيل أفريانتش فكان صحيحًا مرحًا كعادته، يتنزه في المدينة من الصباح للمساء، ويبحث عن أصدقائه القدامى. ولم يبت في الفندق عدة ليال، وذات مرة بعد ليلة قضاها بالخارج عاد في الفجر في حالة شديدة من التهيج أحمر الوجه أشعث الشعر، وأخذ يسير من ركن لآخر متمتمًا بكلمات غير واضحة، ثم توقف وقال:

- الشرف قبل كل شيء!

وسار قليلًا ثم أمسك برأسه وقال بصوت تراجيدي:

- أجل. الشرف قبل كل شيء! ملعونة تلك اللحظة التي جاءتني فيها فكرة السفر إلى سوق بابل هذا. يا عزيزي فلتحتقرني: لقد خسرت كل شيء في القمار! اعطني خمسمائة روبل!

فعد أندريه يفيمتش خمسمائة روبل وأعطاها لصديقه صامتًا، فتمتم هذا بقسم غير ضروري وهو لا يزال أحمر الوجه خجلًا وغضبًا. وعاد بعد حوالي ساعتين وارتمى على المقعد وتنهد بصوت مسموع قائلًا:

- لقد أنقذت شرفي! فلنرحل يا صديقي! لا توجد عندي أي رغبة في البقاء دقيقة أخرى في هذه المدينة الملعونة. اللصوص! جواسيس النمسا!

وعادا إلى مدينتهما في نوفمبر حيث كان الجليد يغطي الشوارع، وكان خوبوتوف يشغل وظيفة أندريه يفيمتش في المستشفى ولا يزال يقطن مسكنه القديم في انتظار عودة أندريه يفيمتش ليخلي مسكنه التابع للمستشفى، وأصبحت المرأة الدميمة- التي كان خوبوتوف قد ادعى أنها طاهيته- تشغل أحد المباني الصغيرة الملحقة بالمستشفى.

وكانت هناك إشاعات جديدة عن المستشفى، فمثلًا قيل إن المرأة الدميمة تخاصمت مع أمين المخزن وركع الأخير على ركبتيه طالبًا منها الصفح.

وفي أول يوم بعد العودة اضطر أندريه يفيمتش أن يبحث لنفسه عن مسكن جديد. وسأله رجل البريد بخجل:

- يا صديقي. أرجو المعذرة عن سؤالي الجريء: كم لديك من النقود؟

فعد أندريه يفيمتش ما معه من النقود وقال:

- ستة وثمانون روبلًا.

فقال ميخائيل أفريانتش بخجل وضيق من أن الطبيب لم يفهمه:

- أنا لا أسأل عما معك الآن، بل أسألك عما تملك عمومًا.

– لقد قلت لك.. ستة وثمانون روبلًا.. ليس عندي شيء آخر.

ولقد كان ميخائيل أفريانتش يعتبر أن الطبيب إنسان شريف وطيب ولكنه كان يشك في أن عنده ادخارات لا تقل عن عشرين ألف روبل، أما وقد علم أن أندريه يفيمتش معدم ولا يملك ما يعيش به بكى فجأة، واحتضن صديقه.

- ١٥ -

استأجر أندريه يفيمتش بيتًا صغيرًا ذا ثلاث نوافذ تملكه امرأة فقيرة تدعى بيلوفا، ويحتوي المنزل على ثلاث غرف ومطبخ، شغل الطبيب غرفتين تطل نوافذهما عل الشارع، وشغلت داريوشكا والمرأة بأطفالها الثلاثة الغرفة الباقية والمطبخ، وأحيانًا كان يأتي عشيق بيلوفا ليبيت عندها، وكان هذا العشيق فلاحًا سكيرًا كثير الصياح ليلًا مما يدخل الرعب في قلوب الأطفال وداريوشكا، كان يحضر ويجلس في المطبخ ثم يبدأ يطالب بالفودكا، وعندئذ يصبح الجميع في غاية الضيق، فيشفق الطبيب على الأطفال الباكين ويأخذهم لينام في غرفته. وكان ذلك يجلب له سرورًا جمًّا.

وكان الطبيب كسابق عهده يستيقظ في الثامنة، يتناول الشاي ثم يبدأ في قراءة كتبه ومجلاته القديمة فلم يكن لديه نقود ليشتري الجديد منها. ولأن الكتب قديمة وربما بسبب التغيير الذي طرأ على حياته لم تعد القراءة تمنحه المتعة التي كان يشعر بها قبلًا، بل أصبحت متعبة بالنسبة له، وكي يشغل وقته بأي شيء، بدأ في عمل «كتالوج» لكتبه، فأخذ يلصق على غلافها أرقامًا مسلسلة، وخيل له أن هذا العمل الميكانيكي البطيء ألطف

من القراءة، وأصبح هذا العمل بتشابهه ورتابته يهدهد أفكاره ويجعله لا يفكر في شيء، وبذلك أصبح الوقت يمر سريعًا، كذلك أصبح الجلوس في المطبخ وتنظيف البطاطس أو تنقية الأرز مع داريوشكا عملًا شيقًا بالنسبة له. وصار يزور الكنيسة أيام السبت والأحد من كل أسبوع، فيقف بجوار الحائط مسبلًا عينيه يسمع التراتيل ويفكر في والديه ويفكر في الجامعة وفي الأديان شاعرًا بالسكينة والحزن، وعندما تنتهي الصلاة يخرج من الكنيسة آسفًا أنها انتهت هكذا بسرعة.

وقد زار المستشفى مرتين ليتحدث مع إيفان ديمترتش، ولكن في كلتا المرتين وجد إيفان ديمترتش متهيجًا غاضبًا بدرجة غير عادية، وكان يطلب منه أن يتركه في هدوء لأنه لم يعد يستسيغ الثرثرة الفارغة ويقول إنه يرجو من الناس الأنذال الملعونين تعويضًا واحدًا فقط عن كل الآلام التي قاساها ألا وهو السجن الانفرادي. هل سيرفض حتى هذا الرجاء؟ وعندما كان أندريه يفيمتش يودعه راجيًا له ليلة هادئة كان الآخر يرد بغضب:

- اذهب إلى الشيطان!

ولم يكن أندريه يفيمتش يدري: أيعاود الزيارة، بالرغم من أنه يودها.

وقبلًا كان الطبيب يسير في الحجرات مفكرًا، أما الآن فأصبح يرقد بعد الغداء حتى موعد شاي المساء، كان يرقد ووجهه للحائط يفكر في المسائل البسيطة التي لا يستطيع لها درءًا. لقد كان يحز في نفسه أنه لم يمنح معاشًا ثابتًا أو حتى مكافأة عن مدة خدمته التي تزيد على العشرين عامًا. صحيح أنه لم يعمل بأمانة ولكن كل الموظفين ينالون معاشًا سواء عملوا بشرف أو بدون شرف. إن العدالة حاليًا تتلخص في أن الحكومة لا تكافئ بالمناصب

والأوسمة والمعاشات الموظف الجيد بل تكافئ بها العمل الحكومي عمومًا جيدًا كان أو سيئًا. فلم شذ هو بالذات عن هذه القاعدة؟ لقد أصبح معدمًا تمامًا، فصار يخجل من أن يمر أمام حانوت البقال وأن ينظر إلى صاحبة المنزل إذ كان مدينًا للأول باثنين وثلاثين روبلًا ثمنًا للبيرة كما كان مدينًا أيضًا للمرأة، وكانت داريوشكا تبيع سرًّا الملابس القديمة وبعض الكتب وتدعي أمام صاحبة المنزل أن الدكتور قريبًا سيحصل على مبلغ كبير من المال.

وكان غاضبًا على نفسه لأنه أنفق على الرحلة الألف روبل التي ادخرها. كم يكون هذا المبلغ مفيدًا الآن! كما كان حانقًا لأن الناس لا يتركونه في هدوء، فكان خوبوتوف يعتبر أن من واجبه زيارة زميله المريض، وكان أندريه يفيمتش يكره فيه كل شيء: وجهه الممتلئ الشبع ولهجته وطريقة كلامه السيئة «المتواضعة» وكلمة «يا زميل المهنة» وحذاءه ذا الكعب العالي، أما أسوأ ما فيه فهو أنه كان يعتبر نفسه مسئولًا عن علاج أندريه يفيمتش، بل كان يظن أنه فعلًا يعالجه، فكان يحضر معه في كل زيارة قنينة بروميد الصوديوم وحبوبًا من دواء آخر.

وكان ميخائيل أفريانتش كذلك يعتبر أن من واجبه زيارة صديقه ليرفه عنه، فكان يدخل عليه كل مرة متصنعًا رفع الكلفة ويقهقه بانفعال ثم يؤكد لصديقه أنه اليوم يبدو رائعًا، والحمد لله أن الحال يتحسن والشفاء التام قريب، مما يثبت أنه كان يعتبر أن حالة صديقه ميئوس منها. وقد كان يشعر بالخجل العميق لأنه لم يرجع قرض وارسو بعد، ولإخفاء خجله كان يحاول أن يقهقه بصوت أعلى وأن يقص فكاهات أكثر، وبدت قصصه

وفكاهاته لا نهائية مما كان يعذب أندريه يفيمتش ويعذبه هو نفسه. وفي حضوره كان أندريه يفيمتش يرقد على السرير ووجهه للحائط. يسمع ويعض نواجذه، ويشعر بأنه يغلي من الداخل، وبعد كل زيارة يشعر أن هذا الغليان يرتفع حتى ليكاد يخنقه.

ولكي يحرر نفسه من هذه الإحساسات التافهة، كان يفكر أنه هو وخوبوتوف وميخائيل أفريانتش سيموتون جميعًا إن عاجلًا أو آجلًا، ولن يتركوا وراءهم حتى البصمات، وإذا تصور المرء أنه بعد مليون عام مرت روح ما بجوار الكرة الأرضية فلن ترى إلا التربة والصخور الجرداء، فسيختفي كل شيء- حتى الحضارة والقوانين الأخلاقية- بلا أي أثر، فلم الخجل إذن من البقال، ولم الغضب من خوبوتوف الحقير أو من صداقة ميخائيل أفريانتش الثقيلة؟ كل هذا كلام فارغ وترهات.

ولكن هذه الأفكار لم تعد تساعده، فعندما يرسم في مخيلته صورة الكرة الأرضية بعد مليون عام بصخورها الجرداء فمن وراء إحداها يظهر له خوبوتوف بحذائه ذي الكعب العالي، أو يظهر ميخائيل أفريانتش بقهقهته المفتعلة، بل يخيل إليه أنه يسمع همسًا خافتًا خجلًا «سأرد لك قرض وارسو قريبًا.. كن متأكدًا».

- ١٦ -

وذات يوم حضر ميخائيل أفريانتش بعد الغداء عندما كان أندريه يفيمتش راقدًا على سريره، وبالصدفة ظهر في نفس الوقت خوبوتوف ومعه بروميد الصوديوم، فنهض أندريه يفيمتش متثاقلًا وجلس على السرير واضعًا يديه تحت ذقنه، وبدأ ميخائيل أفريانتش الحديث قائلًا:

- أما اليوم يا عزيزي فلون وجهك أحسن كثيرًا من الأمس. أجل أنت رائع! أي والله رائع!

فقال خوبوتوف متثائبًا:

- لقد حان الوقت. حان الوقت يا زميلي، فلا بد إنك مللت هذه اللعبة.

فقال ميخائيل أفريانتش بمرح:

- طبعًا سنشفى! بل وسنعمر لمائة عام! ماذا تظن؟

فقال خوبوتوف:

- مائة عام أو أقل، المهم صحته تكفيه لمدة عشرين عامًا أخرى. لا تبتئس يا زميلي، لا تبتئس.. لا داعي لطمس الحقائق بوضع الظلال عليها.

وقال ميخائيل أفريانتش:

- سترى ما سنفعل!

ثم قهقه وربت بكفه على ركبة صديقه وأضاف:

- سترى ما سنفعل! في الصيف القادم إن شاء الله سنرحل إلى القوقاز وسنمتطي هناك ظهور الخيل- تاك. تاك. تاك! ثم نعود من القوقاز لنلهو في حفلة الزفاف.

وغمز بعينه لأندريه يفيمتش وأضاف:

- سنزوجك يا صديقي العزيز.. سنزوجك..

فشعر أندريه يفيمتش فجأة بالغليان يملأه ويصل لحلقه، وتوالت دقات قلبه، فقال:

- يا للترهات!

ونهض مسرعًا وتوجه إلى النافذة وأضاف:

- ألا تشعرون بأنكم تقولون ترهات قذرة؟

وأراد أن يواصل كلامه بطريقة هادئة مهذبة ولكنه رغم إرادته ضم يديه ورفع قبضاته إلى أعلى واحمر وجهه وارتجف جسده وصرخ بصوت رهيب:

- اتركاني! اخرجا! اخرجا معًا في الحال!

فنهض ميخائيل أفريانتش وخوبوتوف محدقين بتعجب ثم بخوف، في حين صرخ أندريه يفيمتش:

- اخرجا! يا للأغبياء! يا للغباء! لست محتاجًا لصداقتك ولا لأدويتك يا غبي! يا للحقارة! يا للوضاعة!

وتبادل خوبوتوف وميخائيل أفريانتش النظرات بتعجب وتوجها للباب

خارجين، وأمسك أندريه يفيمتش بزجاجة بروميد الصوديوم وقذف بها وراءهم فاصطدمت بالباب وتحطمت، وتتبعهم إلى مدخل المنزل صارخًا:

- اذهبا إلى الشيطان! إلى الشيطان!

وبعد أن خرجا ظل أندريه يفيمتش ينتفض كالمحموم ويكرر:

- يا للغباء! يا لهم من أغبياء!

ولما هدأت ثورته كان أول ما ورد على عقله أن ميخائيل أفريانتش المسكين غالبًا ما يشعر الآن بالخجل الشديد وأنه لا بد يتعذب من الشعور بالذنب، عمومًا لقد حدث شيء فظيع لم يحدث قبلًا مطلقًا. أين العقل والمنطق؟ أين تعقل الأشياء وأين الهدوء النفسي؟

ولم يستطع الطبيب أن ينام طوال الليل من الأسى والخجل من نفسه، وفي العاشرة صباحًا توجه إلى مكتب البريد واعتذر لصاحبه، فتأثر ميخائيل أفريانتش جدًا وصافحه بقوة وقال متنهدًا:

- لننس ما مضى.

وصرخ فجأة مناديًا أحد السعاة صرخة جعلت كل الموظفين والعملاء ينتفضون:

- احضر مقعدًا!

ثم صرخ في وجه المرأة التي كانت تقدم له من الشباك خطابًا مسجلًا، قائلًا:

- انتظري! ألا ترين أني مشغول؟

ثم التفت لأندريه يفيمتش وقال له بهدوء ولطف:

- اجلس أرجوك يا عزيزي.

وأخذ رجل البريد يمسح ركبتيه بيديه لفترة ثم قال:

- لم أفكر في الغضب مطلقًا، إني أفهم جيدًا أن المرض صعب، لقد أقلقتنا جدًا حالتك بالأمس، وتحدثنا أنا والدكتور عنك طويلًا، لماذا يا عزيزي لا تريد أن نهتم بمرضك بالجدية اللازمة؟ هل من الممكن إهمال مثل هذا المرض؟

وخفض ميخائيل أفريانتش صوته وأضاف:

- اعذرني على صراحتي كصديق: إنك تعيش في ظروف غير مناسبة، شقة ضيقة، قذارة، لا يهتم بخدمتك أحد، لا تملك ثمن علاجك... يا صديقي العزيز، إنا نتوسل إليك أنا والدكتور من كل قلبينا أن تسمع لنصيحتنا وتدخل المستشفى فستجد فيها الغذاء الصحي والعناية والعلاج، صحيح أن يفجيني فيودرتش جلف، إلا أنه- فيما بيننا- طبيب جيد من الممكن الاعتماد عليه، لقد وعدني بأنه سيهتم بك.

فتأثر أندريه يفيمتش تأثرًا بالغًا من الاهتمام الصادق ومن الدموع التي طفرت من عيني رجل البريد، فقال بصوت منخفض واضعًا يده على صدره:

- لا تصدق! لا تصدقهم! إن هذا خداع! إن مرضي الوحيد هو أني خلال عشرين عامًا لم أجد في كل المدينة إلا إنسانًا ذكيًا واحدًا ولكنه مجنون، ليس عندي أي مرض ولكني ببساطة وقعت داخل دائرة سحرية مغلقة لا يوجد منها مخرج. ولكن لا فرق عندي فأنا مستعد لكل شيء.

- ادخل المستشفى يا عزيزي.

- لا فرق عندي، إنني على استعداد أن أدخل جهنم ذاتها.

- أعطني كلمة يا عزيزي إنك ستطيع يفجيني فيودرتش في كل شيء.

- فليكن، أعدك. ولكني أكرر لقد وقعت في دائرة سحرية مغلقة. والآن كل شيء حتى العطف والاهتمام المخلص من جانب أصدقائي يؤدي إلى نتيجة واحدة، يؤدي إلى هلاكي. إنني أهلك وعندي الشجاعة الكافية لأدرك ذلك.

- ستشفى يا عزيزي.

فقال أندريه يفيمتش بضيق:

- لا داعي لهذا القول، قلما يوجد الإنسان الذي لا يشعر في آخر حياته بما أشعر به أنا الآن، وإذا ما قال لك أحد إن كليتيك مثلًا مريضتان أو أن قلبك متضخم أو إذا قال الناس عنك إنك مجنون أو مجرم، وبكلمة واحة إذا بدأ الناس في الاهتمام بأمرك فجأة، فيجب عليك أن تعلم إنك وقعت في دائرة سحرية مغلقة لن تخرج منها أبدًا، وكلما حاولت تحرير نفسك ضللت أكثر. لذا يجب أن تستسلم؛ لأنه لا توجد أي قوة تستطيع تحريرك، هكذا أرى.

وكان الجمهور قد تجمع أمام شباك رجل البريد، فنهض أندريه يفيمتش ليودع صاحبه حتى لا يعطله عن العمل. وأخذ ميخائيل أفريانتش وعدًا آخر من صديقه ثم ودعه إلى الباب الخارجي.

وفي نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف إلى أندريه يفيمتش، وكان مرتديًا معطفه القصير وحذاءه ذا الكعب العالي، وقال له كما لو أن شيئًا لم يحدث ألبتة:

– لقد أتيت لك يا زميلي لموضوع متعلق بالعمل. أنا أدعوك لتأتي معي لنشكل «كونسلتو» طبيًّا للكشف على أحد المرضى.

فظن أندريه يفيمتش أن خوبوتوف يريد أن يرفه عنه بالتنزه أو أنه يعطيه فرصة للتكسب فارتدى أندريه يفيمتش ملابسه وخرج مع خوبوتوف، وسر من أن خوبوتوف يمنحه الفرصة لمحو غلطة الأمس وللتصالح فشكر له أندريه يفيمتش كل هذا في نفسه، ولم يذكر خوبوتوف شيئًا عما وقع بالأمس، وكان من الصعب توقع هذه الرقة من إنسان غير مهذب مثل خوبوتوف.

وسأله أندريه يفيمتش:

– أين مريضك هذا!؟

– عندي في المستشفى، لقد كنت أود أن أريه لك من مدة... حالة نادرة.

ودخلا فناء المستشفى ثم سارا بجوار المبنى الرئيسي متجهين إلى مبنى عنبر المجانين، ولما دخلاه نهض نيكيتا كعادته.

وبعد أن دخلا العنبر قال خوبوتوف خافضًا صوته قليلًا:

– لقد حدث لأحدهم هنا مضاعفات في الرئة. انتظرني قليلًا، سأحضر سماعتي.

وخرج.

- ١٧ -

كان الوقت مساء، وكان إيفان ديمترتش راقدًا على سريره مخبئًا وجهه في الوسادة، وكان المشلول جالسًا بلا حراك يبكي في هدوء متلمظًا بشفتيه، أما الفلاح السمين ومصنف البريد السابق فكانا نائمين. كان الهدوء يسود العنبر.

جلس أندريه يفيمتش على سرير إيفان ديمترتش منتظرًا، ومرت نصف ساعة، وبدلًا من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكًا بصرة بها معطف وملابس داخلية وقال بصوت خفيض:

- تفضلوا سيادتكم بتغيير الملابس، ها هو سريرك.

وأشار إلى سرير لم يكن هنا من قبل، وأضاف:

- لا تحزن، قريبًا ستشفى بإذن الله.

فهم أندريه يفيمتش كل شيء، ونهض صامتًا ليجلس على السرير الذي أشار إليه نيكيتا، ولما رأى أن نيكيتا ينتظر تعرى من ملابسه كلها واحمر خجلًا، ثم ارتدى ملابس المستشفى، وكانت السراويل قصيرة جدًا، ورائحة السمك المملح تفوح من المعطف.

وردد نيكيتا:

- ستشفى بإذن الله.

ثم أخذ الملابس وخرج مغلقًا الباب خلفه.

وفكر أندريه يفيمتش وهو يلملم المعطف بخجل ويشعر أنه في ردائه الجديد أشبه بالسجين «كل شيء سواء.. كل شيء سواء.. لا فرق بين الحلة وبين البزة العسكرية وبين هذا المعطف.. ولكن الساعة! والمذكرة الموجودة في الجيب الجانبي! والسجائر؟ إلى أين حمل نيكيتا الملابس؟ يبدو أنني لن أرتدي مرة أخرى بنطلونًا أو صديريًا أو حذاء، إلى الممات» إن ذلك لغريب وغير مفهوم للوهلة الأولى. وحتى هذه اللحظة كان أندريه يفيمتش لا يزال مؤمنًا بأنه لا فرق بين منزل بيلوفا وبين العنبر رقم ٦، وأن كل شيء على وجه الأرض ترهات وأشياء مصيرها الزوال، ولكن كانت يداه ترتجف وأقدامه تبرد وسيطر عليه شعور ثقيل إذ قريبًا سينهض إيفان ديمترتش وسيراه في المعطف، فنهض وتمشى في الغرفة قليلًا ثم جلس، وظل جالسًا حوالي ساعة فأصابه الملل. أمن المعقول أن يستطيع المرء الحياة هنا لمدة يوم وأسبوع وسنوات مثل هؤلاء الناس؟ حسنًا، لقد جلس ثم تمشى ثم جلس ثانية، ومن الممكن أن يذهب لينظر من النافذة ثم يتمشى من ركن لآخر، ثم ماذا؟ أيجلس المرء طوال الوقت كالمشدوه ويفكر؟ لا، هذا مستحيل.

ورقد أندريه يفيمتش ولكنه نهض في الحال ومسح العرق البارد من فوق جبينه بكم المعطف فشعر برائحة السمك المملح تنبعث من كل وجهه، فبدأ في السير ثانية، ورفع كفيه إلى أعلى وقال متعجبًا:

– هناك سوء فهم.. لا بد من إيضاح الأمر فهناك سوء فهم...

وهنا استيقظ إيفان ديمترتش وجلس واضعًا يديه تحت ذقنه و بصق،

ثم نظر بتكاسل إلى الطبيب ويبدو أنه لأول وهلة لم يفهم ما يحدث حوله، ولكن سريعًا ما أصبح وجهه قاسيًا هازئًا وقال مغمضًا إحدى عينيه وبصوت مبحوح من أثر النوم:

- أها، لقد جاءوا بك أنت أيضًا يا عزيزي! إني لمسرور. لقد كنت تمتص دم الناس والآن سيمتص دمك. رائع!

فأخافت تلك الكلمات أندريه يفيمتش وقال:

- لقد وقع سوء فهم.

ورفع كتفيه وكرر:

- هناك سوء فهم.

وبصق إيفان ديمترتش ورقد ثم قال بضيق:

- يا لها من حياة ملعونة! وأكثر ما يحزن أننا لن نكافأ على تحمل كل هذه الآلام ولن تنتهي حياتنا نهاية سعيدة كما يحدث عادة في الأوبرا بل ستنتهي بالموت. وسيأتون لحمل جثثنا من الأيدي والأرجل. ويلقون بنا في بدروم المستشفى. أوف! ولكن حسنًا.. ستكون حياتنا في العالم الآخر عيدًا... وسأحضر من العالم الآخر كشبح لأخيف أولئك الأنذال. سأجعلهم يجنون.

وعندما عاد موسيكا ورأى الطبيب مد له يده قائلًا:

- اعطني كوبيكا!

- ١٨ -

توجه أندريه يفيمتش إلى النافذة وكان الظلام قد خيم، ورأى في الأفق من ناحية اليمين القمر قد سطع باردًا أحمر اللون، وغير بعيد على بعد حوالي مائة ذراع- لا أكثر- من سور المستشفى يقع مبنى أبيض مرتفع ذو جدران حجرية، ذلك هو السجن.

وفكر أندريه يفيمتش «هذا هو الواقع» فداخله الرعب.

وبدا له كل شيء مخيفًا- القمر، السجن، المسامير على السور ووهج النيران، وأحس بأنفاس خلف ظهره وعندما استدار وجد رجلًا تلمع على صدره نجوم وأوسمة يبتسم، ويغمز له بعينه، فبدا له ذلك أيضًا مخيفًا.

وحاول أندريه يفيمتش أن يقنع نفسه أنه لا يوجد شيء غريب في القمر أو في مبنى السجن، وأن الناس الأصحاء أيضًا يضعون على صدورهم الأوسمة، وأنه بمرور الوقت سيتعفن كل شيء وسيتحول إلى تراب، ولكن فجأة أحس بيأس هائل فأمسك بقضبان النافذة بكلتا يديه وصار يهزها بعنف ولكن القضبان القوية لم تتحرك من مكانها.

وحتى يتغلب على إحساسه بالخوف توجه إلى سرير إيفان ديمترتش وجلس عليه وقال وكل جسده يرتجف:

- لقد انهرت معنويًا يا عزيزي، انهرت تمامًا.

ومسح العرق من على جبينه، فأجاب إيفان ديمترتش هازئًا:

- فلتتفلسف.

- يا إلهي يا إلهي... أجل، أجل.... لقد تفضلت مرة وذكرت أنه لا توجد في روسيا فلسفة، ولكن الجميع يتفلسفون حتى البسطاء.

وأضاف بلهجة من يريد أن يبكي ويجعل الآخرين يشعرون نحوه بالعطف:

- ولكن فلسفة البسطاء لا تؤذي أحدًا. لِمَ يا عزيزي تضحك بتشفي؟ وكيف لا يتفلسف البسطاء إذا كانوا غير راضين عن وضعهم؟ إن الإنسان الذكي، المثقف، الأبيّ، المحب للحرية، المخلوق على صورة الآلهة يجد نفسه مضطرًا للعمل في مستشفى مدينة صغيرة غبية، ولا يرى في حياته سوى كاسات الهواء واللزقات والأربطة. يا له من خداع وضيق أفق ووضاعة! يا إلهي!

- إنك تثرثر بترهات. إذا كنت متقززًا من التطبيب فلماذا لم تصبح وزيرًا؟

- لا مخرج، لا مخرج. إننا ضعفاء يا صديقي، لقد كنت هادئ النفس سليم التفكير طالما لم تمسني الحياة القاسية، فما أن مستني حتى انهارت روحي المعنوية... يا للتهلهل... إننا لضعفاء متهلهلون.. وأنت أيضًا كذلك يا عزيزي. إنك ذكي، كريم الخلق، بل لقد رضعت نبل الأخلاق مع لبن الأم ولكن ما إن طرقت أبواب الحياة حتى تعبت ومرضت... ضعفاء نحن!

ولقد شعر أندريه يفيمتش مع هبوط المساء بإحساس لزج غير مفهوم، بخلاف الحزن والخوف، وأخيرًا أدرك أنه بحاجة إلى البيرة والدخان فقال:

- سأخرج من هنا يا عزيزي، سأطلب منهم إحضار مصباح... إنني لا أستطيع هكذا... لن أتحمل...

وتوجه أندريه يفيمتش إلى باب العنبر وفتحه، ولكن نيكيتا نهض سريعًا وسد الطريق قائلًا:

- إلى أين؟ ممنوع، ممنوع! حان وقت النوم!

فقال أندريه يفيمتش بسرعة:

- ولكني سأخرج لفترة وجيزة، سأتريض قليلًا في الفناء!

- ممنوع، ممنوع! الأوامر لا تسمح بذلك. إنك يا سيدي تعلم بنفسك.

وقفل نيكيتا الباب بقوة وسنده بظهره، فتساءل أندريه يفيمتش متعجبًا:

- ولكن ماذا سيحدث إذا خرجت من هنا؟ أنا لا أفهم! نيكيتا، إني محتاج للخروج!

وأضاف بنبرات متقطعة:

- إني في أمس الحاجة!

فقال نيكيتا ناصحًا:

- لا داعي للفوضى! هذا غير حسن!

فصرخ إيفان ديمترتش فجأة:

- يا للشيطان!

ونهض مسرعًا وأضاف:

- أي حق يخول له منعنا من الخروج؟ كيف يجرؤون على سجننا هنا؟ إن القانون- على ما أظن- ينص صراحة إنه لا يمكن مصادرة الحريات دون محاكمة! إن هذا لقهر واغتصاب؟ إنها لفوضى!

فقال أندريه يفيمتش متشجعًا بصراخ إيفان ديمترتش:

- طبعًا فوضى! إنني محتاج للخروج فيجب أن أخرج. إنه لا يملك الحق في منعي. افتح نقول لك!

فصرخ إيفان ديمترتش مرتجفًا:

- افتح! إني أطالب بذلك!

وقال نيكيتا من وراء الباب:

- فلتتكلم كما يحلو لك! قل، قل!

فقال أندريه يفيمتش:

- على أقل تقدير اذهب واستدع يفجيني فيودرتش! قل له إني أرجوه أن يأتي... لدقيقة واحدة.

- سيحضر بنفسه غدًا.

فقال إيفان ديمترتش:

- لن يخرجونا من هنا أبدًا! سنتعفن هنا يا إلهي! هل فعلًا لا توجد جهنم وسيفلت هؤلاء الأنذال من العقاب؟ أين إذن العدالة؟

وصرخ بصوت متحشرج:

- افتح يا نذل، إني أختنق!

وارتمى على الباب صارخًا:

- سأحطم رأسي! يا قتلة!

ففتح نيكيتا الباب بسرعة ودفع أندريه يفيمتش بقسوة في ظهره بكلتا يديه وركبته، ثم ضربه بقبضة يده وبكل قوته على وجهه، فشعر أندريه يفيمتش بموجة مالحة هائلة غطته إلى قمة رأسه وقذفت به إلى السرير، وفعلًا أحس بطعم مالح في فمه، لا بد أن الدم ينزف من أسنانه، وجدف بيديه كما لو كان يسبح وأمسك بأحد الأسرة، وشعر بضربتين قويتين أخريين.

وصرخ إيفان ديمترتش، لا بد أنه يضرب هو الآخر.

ساد الهدوء. وكان ضوء القمر ينساب خلال قضبان النافذة مكونًا على الأرضية ظلًا يشبه الشبكة. ورقد أندريه يفيمتش على السرير حابسًا أنفاسه ينتظر برعب ضربات أخرى، وأحس كما لو أن أحدًا وضع في جوفه منجلًا حادًّا ثم قلبه عدة مرات في صدره وأحشائه، فعض الوسادة من الألم الحاد، وفجأة وبين الفوضى اللانهائية في رأسه ظهرت فكرة فظيعة غير محتملة: إنه كان على هؤلاء الناس هنا في العنبر- هؤلاء الناس الأشبه بالخيالات السوداء في ضوء القمر الشاحب- أن يقاسوا لمدة سنين ليالي كثيرة مثل هذه الليلة. كيف كان ذلك يحدث لمدة عشرين سنة وأكثر وهو لا يشعر أو لا يريد أن يشعر؟ إنه لم يعرف الألم بل لم يكن عنده أي فكرة عن الألم، إذن فهو غير مذنب. ولكن ضميره كان قلقًا، وفظًّا مثل ضمير نيكيتا، فتملكته الرجفة من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، فنهض مسرعًا وأراد أن يصرخ بكل قوته ثم يجري ليقتل نيكيتا وخوبوتوف وكبير الممرضين وأمين

المخزن ثم يقتل نفسه، ولكن لم يخرج من حلقه أي صوت ولم تطعه قدماه وأحس بالاختناق فمزق المعطف والقميص من على صدره وارتمى على السرير مغميًا عليه.

- ١٩ -

وفي صباح اليوم التالي كانت رأسه تؤلمه، ويسمع صفيرًا في أذنيه ويشعر بكل جسده محطمًا، ولم يخجل من ضعفه بالأمس، لقد كان بالأمس جبانًا خائفًا حتى من ضوء القمر، بل لقد ذكر بصراحة وصدق بعض الأفكار والإحساسات التي لم يكن يظن أنها موجودة أصلًا في رأسه، مثل فكرة أن البسطاء يتفلسفون لأنهم غير راضين. ولكن الآن كل شيء سواء بالنسبة له، ولم يكن يأكل أو يشرب، بل رقد ساكنًا صامتًا. وعندما كان يوجه إليه أحد سؤالًا كان يفكر «كل شيء سواء، لن أجاوب... بالنسبة لي كل شيء سواء».

وبعد الغداء حضر ميخائيل أفريانتش وأحضر معه ربع رطل شاي ورطل حلوى، كما حضرت داريوشكا ووقفت لمدة ساعة بجوار سريره وعلى وجهها يرتسم تعبير حزن غبي، ثم زاره خوبوتوف وأحضر له زجاجة بروميد الصوديوم وأمر نيكيتا أن يدخن العنبر بأي شيء محترق ليطرد منه الروائح.

وقبيل المساء مات أندريه يفيمتش إثر انفجار شرايين المخ. شعر أولًا برعشة هائلة وغثيان، ثم أحس كما لو أن شيئًا مقززًا بدأ يملأ جسده حتى

لقد دخل إلى أصابعه ثم صعد من معدته إلى رأسه وغطى عينيه وأذنيه، ثم رأى أمام عينيه شيئًا أخضر اللون. وأدرك أندريه يفيمتش أن نهايته قد حانت، وتذكر أن إيفان ديمترتش وميخائيل أفريانتش وملايين آخرين من البشر يؤمنون بالأبدية والحياة الأخرى. أتكون هناك حياة أخرى؟ ولكنه لم يشعر بأي رغبة في الحياة الأبدية ولم يفكر فيها إلا للحظة خاطفة. ها هو قطيع من الغزلان ذات الجمال الأخاذ تلك الغزلان التي قرأ عنها بالأمس في منزله. وها هي امرأة تمد يدها بخطاب مسجل.. وها هو ميخائيل أفريانتش قد قال شيئًا.. ثم اختفى كل شيء. وسكن أندريه يفيمتش إلى الأبد.

وجاء عمال المستشفى وحملوه من يديه وقدميه وحملوه إلى المشرحة، وقضى الجثمان الليلة على المنضدة بأعين مفتوحة تحت ضوء القمر. وفي الصباح حضر كبير الممرضين حيث قرأ صلاة أوشية الموتى ثم أقفل عيني رئيسه السابق.

ودفن أندريه يفيمتش في اليوم التالي. ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل أفريانتش وداريوشكا.

تمت